تَثْقِيْفُ الخَطِيْبِ لُغَوِيًّا

تأليف:

د. عبد الله العواضي

الإهداء

إلى المرابطين على ثغور المنابر، الواعين عظمةَ رسالتهم، الحريصين على هداية أُمّتهم، الذين يسعون دائمًا إلى تجديد معلوماتهم، وتطوير آلاتهم الخطابية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فإن خطبة الجمعة لها شأن عظيم في ديننا، ولها غايات حميدة بيننا، فلها يجتمع مَن وجبت عليهم، تاركين وراءهم أعمالهم وهواياتهم وأحبابهم ومحبوباتهم، يأتون إليها لتلبية النداء الخالد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]، ويجيئون من بيوتهم وأسواقهم إلى المساجد؛ طمعًا في سماع موعظةٍ توجل منها قلوبهم، وفائدةٍ تزيد بها معارفهم، ونصيحة تزكو بروعتها أعمالهم.

وهذا يجعل الخطيب الواعي يؤهل نفسه علميًا وخطابيًا وسلوكيًا لأنْ يكون قِبلةً صالحةً لتلك المقاصد التي يقف الناس بين يديه يوم الجمعة لتحقيقها.

ألا، وإنّ من المطالب المهمة التي تطلب من الخطيب للوصول إلى الإحسان في مهمته والتأثير بين جمهوره: أن يكون له نصيب كافٍ من لغة العرب الفصحى

التي نزل بها القرآن العظيم، وتكلم بها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ودونت بها كثير من أسفار علوم الإسلام.

وقد أحببت أن أشارك في تنبيه زملائي الخطباء في هذا المجال، فسجلت اثني عشر مقطعًا صوتيًا في مجموعة من مجموعات الواتساب وفرغت إلى مقالات، ثم ارتأيت إضافة ثمانية أخرى، فتمت بذلك عشرين مقالاً.

وهذا الجهد اليسير –الذي لا يسلم من النقص والخطأ بلا شك– جاء زفرة غيور؛ نتيجة قصورٍ لغويٍّ شهدناه في بعض الخطباء، حتى إننا سمعنا ورأينا بعض العوام الذين لا يعرفون علوم اللغة العربية حنقين على بعض الخطباء؛ لكونهم لا يحسنون اللغة العربية، فكيف حال العارفين بها، بَلْهَ الغيارى عليها!!

نسأل الله أن ينفع بهذا العمل خطباءنا الفضلاء، وأن يغفر لنا خطأنا وقصورنا فيه؛ إنه جواد كريم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: د. عبد الله العواضي

ليلة الجمعة: ٥/٨/١٤٤٢هـ، ١٨/٣/٢٠٢١م.

علوم اللغة العربية

يظن بعض الناس أن اللغة العربية ليس لها من العلوم إلا النحوُ والصرف والبلاغة؛ وقد سبب هذا الظنَّ كونُ العناية اليوم قليلة بدراسة سائر علوم العربية وتدريسها.

قال الزمخشري: "اعلم أنَّ أصناف العلوم الأدبية-يريد العربية- ترتقي إلى اثني عشر صنفاً:

الأول: علم اللغة.

والثاني: علم الأبنية -يعني: الصرف-.

والثالث: علم الاشتقاق.

والرابع: علم الإِعراب- يعني: النحو-.

والخامس: علم المعاني.

والسادس: علم البيان.

والسابع: علم العَروض.

والثامن: علم القوافي.

والتاسع: إنشاء النثر.

والعاشر: قرض الشعر.

والحادي عشر: علم الكتابة.

والثاني عشر: المحاضرات"[١].

ونظم بعضهم هذه العلوم فقال:

نَحْوٌ وَصَرْفٌ عرُوضٌ بَعْدَهُ لُغَة ... ثُمَّ اشْتِقَاقٌ وَقَرْضُ الشِّعْرِ إنْشَاءُ

كَذَا الْمَعَانِي بَيَانُ الْخَطِّ قَافِيَةٌ ... تَارِيخُ هَذَا لِعِلْمِ الْعُرْبِ إحْصَاءُ[٢].

وقال آخر:

نحوٌ وصرفٌ عَروضٌ ثمّ قافيةٌ ... وبعدها لغةٌ قرضٌ وإنشاءُ

خطٌّ بيانٌ معانٍ معْ مُحاضَرة ... والاشتقاقُ لها الآدابُ أسماءُ[٣].

ولو جئنا نسأل: **ما دور هذه العلوم في لغتنا العزيزة؟**

فالجواب- كما قال الجاربردي في "حاشيته على الشافية"[٤] وهو يتحدث عن هذه العلوم-: هي: علوم يحترز بها عن الخلل في كلام العرب لفظاً أو كتابة، وهي على ما صرحوا به اثنا عشر، منها: أصول؛ وهي العمدة في ذلك الاحتراز، ومنها فروع.

أما الأصول: فالبحث إمّا عن المفردات من حيث جواهرها وموادها؛ فعلم اللغة، وإمّا من حيث صورها وهيئاتها؛ فعلم التصريف، وإمّا من حيث انتساب بعضها إلى بعض بالأصالة والفرعية؛ فعلم الاشتقاق.

---

[١] القسطاس في علم العروض (ص: ١٥).

[٢] حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (٢/ ٤٢٢).

[٣] ملتقى أهل اللغة (١/ ٨٧٧).

[٤] الشافية في علمي الصرف والخط (١/٦).

وأمّا عن المركبَّات على الإطلاق؛ فإمّا باعتبار هيئاتها التركيبية وتأديتها لمعانيها الأصلية؛ فعلم النحو، وإمّا باعتبار إفادتها لمعان مغايرة لأصل المعنى؛ فعلم المعاني، وإمّا باعتبار كيفية تلك الإفادة في مراتب الوضوح؛ فعلم البيان.

وأما عن المركبات الموزونة؛ فإمّا من حيث وزنها؛ فعلم العروض، وإمّا من حيث أواخر أبياتها؛ فعلم القافية.

وأما الفروع: فالبحث فيها إمّا أن يتعلق بنقوش الكتابة؛ فعلم الخط، وإمّا يختص بالمنظوم؛ فالعلم المسمى بقرض الشعر، وإمّا بالمنثور؛ فعلم إنشاء النثر من الرسائل والخطب، وإمّا لا يختص بشيء منها؛ فعلم المحاضرات، ومنه التواريخ.

بعد هذا، أحب أن أعلق على بعض العلوم فأقول:

علم البديع: لم يَعدَّه بعضهم في هذه العلوم الاثني عشر؛ لكونهم قد جعلوه ذيلاً لعلم المعاني والبيان لا علماً مستقلاً.

وهو علم يعنى بالزخرفة اللفظية غالبًا.

وعلم المحاضرات: يراد به إيراد الكلمات للمجالس، ويدخل فيه السيرة والتاريخ والتراجم.

وعلم الخط: ويسمى علم الكتابة، وعلم قوانين الكتابة، وعلم الهجاء، وعلم تقويم اليد، وهو قسمان:

قسم لُغوي: ويشمل قواعد الإملاء وعلامات الترقيم.

وقسم جمالي: ويشمل الخطوط العربية الأساسيةَ الستة وهي:

(الرُّقعة، والنسخ، والفارسي، والثلث، والديواني، والكوفي، وما تفرع منها).

وأريد أن أطيل الكلام قليلاً عن علم من علوم العربية السابقة يكاد أن يكون مهجوراً في الدرس العربي اليوم؛ ألا وهو علم الاشتقاق، وسأتحدث عنه في نطاق مبادئ العلوم العشرة التي نظمها الصبان في قوله:

إِنَّ مَبَادِي كُلِّ فَنٍّ عَشَرَهْ ... الحَدُّ وَالمَوْضُوعُ ثُمَّ الثَّمَرَهْ

وَفَضْلُهُ وَنِسْبَةٌ وَالْوَاضِعْ ... وَالِاسْمُ الِاسْتِمْدَادُ حُكْمُ الشَّارِعْ

مَسَائِلٌ وَالْبَعْضُ بِالْبَعْضِ اكْتَفَى ... وَمَنْ دَرَى الجَمِيعَ حَازَ الشَّرَفَا[1].

قال بعضهم عن علم الاشتقاق[2]:

١-اسمه: علم الاشتقاق أو مقاييس اللغة.

والأول هو المشهور في كتب المصنفين، ولكن الثاني أقرب إلى المراد، وبذلك سمّى ابن فارس كتابه.

٢-حده: علمٌ بدلالات كلام العرب التي يعرف بها الأصل الذي ترجع إليه الألفاظ.

٣- موضوعه: معرفة دلالات الألفاظ وارتباط بعضها ببعض؛ وذلك بالرجوع إلى أصول معانيها المستنبطة من قياس دلالات الألفاظ المتماثلة المادة.

---

[1] شرح المطلع على متن إيساغوجي (٢/ ١٩).

[2] أرشيف منتدى الفصيح.

٤- **ثمرته**: التعمق في فهم كلام العرب.

ومن ثَمَّ في فهم كلام الشارع، وكثيراً ما تجد المفسرين يشيرون إشارات عابرة إلى أمثلة من هذا العلم، وكثير من المصنفين في العلوم يشيرون أيضًا إليه إشارات عابرة عند شرح بعض الاصطلاحات وبيان وجه الاشتقاق فيها.

٥- **واضعه**: يعد ابن دريد (المتوفى: ٣٢١هـ): أول من أفرده بتصنيف يشتمل على كثير من أصوله.

وابن فارس: هو باري قوسه بكتابه "مقاييس اللغة".

وهناك بعض المحاولات والمنثورات قبلهما، خاصة من قِبَل الخليل بن أحمد.

٦- **حكم تعلمه**: فرض كفاية؛ كما قرر أهل العلم أن تعلم علوم الآلة جميعًا من فروض الكفاية.

٧- **فضله**: ما ساعد على فهم النصوص الشرعية فلا شك أنه علم فاضل؛ ولذلك يكثر دورانه في كتب التفسير، والاستنباطات في الخلافات الفقهية.

٨- **نسبته**: من علوم اللغة العربية مع الإعمال العقلي.

ويمكن عده جزءاً من علم (فقه اللغة).

وفيه اشتراك مع (علم التصريف) في بعض المباحث من وجه.

والفرق بينهما: أن **علم التصريف** يبحث في الأوزان الظاهرة ودلالة كل وزن، **أمّا الاشتقاق** فيبحث في الدلالة الباطنة وارتباط المعاني في المادة الواحدة.

٩- **استمداده**: كلام العرب وأحوالهم وإشاراتهم التي يستفاد منها القرائن التي

تدل على اتفاق ألفاظ المادة في اللغة.

١٠- مسائله: الأسماء (أعلامًا كانت أم غيرها) والكلمات والمواد العربية، والبحث في الأصول المعنوية التي ترجع إليها.

فجدير بالخطيب أن يتعرف على هذه العلوم ويدرسها دراسة واعية؛ فهي القاعدة الراسخة التي ينطلق منها خطابه المؤثر.

فاطلب العلم ولا تكسل فما ... أبعدَ الخيرَ على أهل الكسلْ
واهجرِ النومَ وحصِّلْهُ فَمَنْ ... يعرفِ المطلوبَ يحقرْ ما بذلْ
جَمِّلِ المَنطِقَ بالنَّحو فمنْ ... يُحرَمِ الإعرابَ بالنُّطقِ اختبلْ
لا تقلْ قدْ ذهبَتْ أربابُهُ ... كلُّ مَنْ سارَ على الدربِ وصلْ[1].

[1] نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن (ص: ١٥٥).

أهمية اللغة العربية

وَسِـعْـتُ كِتَـابَ اللهِ لَفْظَـاً وغَـايَـةً ... وَمَـا ضِـقْـتُ عَنْ آيٍ بـهِ وَعِظِـاتِ
فكيفَ أَضِـيـقُ اليومَ عَنْ وَصْـفِ آلَةٍ ... وتنسيقِ أَسْمَـــــاءٍ لِمُخْتَرَعَـــــاتِ
أنـا البحرُ في أحشـــائِهِ الـدُّرُّ كَـامِنٌ ... فَهَلْ سَـأَلُوا الغَوَّاصَ عَنْ صَـدَفَاتي
فيـا وَيْحَكُمْ أَبْلَى وَتَبْلَى مَحَاسِـني ... وَمِنْكُم وَإِنْ عَـزَّ الدَّوَاءُ أُسَاتي
فـلا تَـكِـلُـوني لـلـزَّمَـانِ فـإِنَّـنـي ... أَخَافُ عَلَيْكُـمْ أَنْ تَحِيـــنَ وَفَـــاتي
أَرَى كُـلَّ يَـوْمٍ [فِي المـنـابر] مَـزْلَـقَـاً ... مِنَ القَبْرِ يُدْنِيـــنـي بِغَيْـــرِ أَنَـــاةِ
أَيَهْـجُرُنِي قَـوْمِـي عَـفَـا اللهُ عَـنْـهُـمُ ... إِلَى لُغَةٍ لم تَتَّصِـلْ بـرُوَاةِ![1].

هل عرفتم المفتخرة الشاكية؟

إنها اللغة العربية، لغة دينكم وكتابكم وسنة نبيكم وتاريخكم وحضارتكم.

إنها العربية بألفاظها ومعانيها وتراكيبها وأساليبها.

إنها العربية بجمالها الساحر، الذي خلب قلوب محبيها، وأسر إعجابهم بها.

إنها اللغة الرائعة التي نظر إلى جمالها الفاتن بعض الغرباء فسباهم، وأعرض عنها بعض أهليها مفتونًا بضرائرها من اللغات الأخرى فيا ويل ذلك القريب النائي!

قال أحد المستشرقين: "ليس على وجه الأرض لغةٌ لها من الروعة والعظمة ما للّغة العربية، ولكن ليس على وجه الأرض أُمة تسعى بوعي أو بلا وعي لتدمير

---

[1] ديوان حافظ إبراهيم (ص: ٦٦).

لغتها كالأمة العربية!"[١].

إننا حينما نتحدث عن لغتنا العربية إنما نتحدث عن مقوم رئيس يقوم عليه بنيان عقيدتنا وأخلاقنا وحضارتنا، فالتهوين من شأنها تهوين من شأن هذا البنيان السامي.

قال بعض أهل العلم: "واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتُهم تزيد في العقل والدين والخُلُق. وأيضًا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فَهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[٢].

وقال ابن خَلدون: "اللسان العربي أركانه أربعة وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة؛ إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلِّها في الكتاب والسنة وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة"[٣].

فالحفاظ على هذه اللغة حفاظ على الدين والهُوية والعز والتميز.

---

[١] أرشيف منتدى الفصيح.

[٢] اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٥٢٧).

[٣] تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٥٣).

وكل أمة تحافظ على انتمائها بقدر حفاظها على لغتها، فكيف بلغتنا العربية التي هي لغة عبادتنا التي نتقرب بها إلى ربنا؟

قال بعض أهل الفضل: "فإن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون؛ ولهذا كان كثير من الفقهاء أو أكثرهم يكرهون في الأدعية التي في الصلاة والذكر: أن يدعى اللهُ أو يذكرَ بغير العربية"[1].

وقال آخر: "تتجلى أهمية اللغة العربية وعلاقتها بعلوم الشريعة في الآتي:

١ - أن الكتاب والسنة عربيان:

فالقرآن الكريم إنما نزل بلغة العرب، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢].

والرسول - صلى الله عليه وسلم - من العرب، وهو ذو لسان عربي فصيح.

قال الشافعي: «ومن جماع علم كتاب الله: العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب»

وقال أيضًا: «وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السنة».

٢- أن معاني كتاب الله موافقة لمعاني كلام العرب، وظاهر كتاب الله ملائم لظاهر كلام العرب؛ ففي القرآن من الإيجاز والاختصار، والعام والخاص كما في كلام العرب.

---

[1] اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٥١٩).

٣- إذا عُلم ذلك فإن فهم مراد الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم- متوقف على فهم لغة العرب ومعرفة علومها؛ فعلى كل مسلم أن يتعلم من هذه اللغة ما يقيم به دينه.

قال الشافعي: «لأنه لا يَعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحدٌ جهل سعة لسان العرب وكثرةَ وجوهه وجماع معانيه وتفرقَها، ومَن علمه انتفت عنه الشبهُ التي دخلت على من جهل لسانها"[(١)].

فيا معشر المسلمين-عربًا وعجمًا- عودوا إلى لغة الإسلام عوداً حميداً؛ مكنوا لحبها في قلوبكم، وانشروا جمالها على ألسنتكم وكتاباتكم، تعلموا علومها بجد، واسمعوا بلابلها بشغف، واحفظوا في صدوركم من ألفاظها ما تقدرون عليه شعراً ونثرا، واقرأوا أسفارها التي أشرقت فيها، فاقرأوا القرآن كثيرا، واقرأوا الحديث النبوي كذلك.

واقرأوا قراءة واعية في دواوين شعرائها الكبار؛ كجرير والفرزدق، والمتنبي والبُحتُري وشوقي والبردُّوني.

واقرأوا كتابات المجيدين فيها في القديم والحديث: اقرأوا للجاحظ وابن قتيبة، والرافعي والمنفلوطي والطنطاوي، وغيرهم.

ويا أيها الخطباء: لتكن العربية الفصحى لغة منابركم وكتاباتكم، ولا تغلبنكم اللهجات العامية، ولا الكلمات المستوردة، ولا محاكاة بعض الإعلاميين في

---

(١) معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة (ص: ٣٧٠).

ألفاظ تخرج عن قواعد العربية، فبالفصحى تسمو منابركم، وبحسن نطقها يعظم خطابكم.

أيا لغة القرآن أنتِ حياتنا ... ومِرآتنا فيما نقول ونفعلُ
جذورك في التاريخ شتى عميقةٌ ... وتاجك في أفق العلا يتوقّلُ
تحية إكبار وحبُ متيَّم ... لعينيك ما يلقى وما يتحملُ
لعل الليالي السودَ تنجاب في غدٍ ... ويشرق صبح بالعدالة مقبل[1].

[1] أرشيف منتدى الفصيح.

مشاهد حزينة على وجه العربية

إذا رأت عيناك ذلك الوجه الصبيح وقد بدت عليه ندوب حزينة طوت حسنه البديع، وأبصرتَ فيه بعد الرُّواء والامتلاء شحوبًا يحكي آلامًا وأوجاعًا، وقرأت في تلك المآسي الصامتة شكوى تبحث عمن ينصفها في ظُلامتها فهناك هناك تعرف أنه وجه اللغة العربية البائسُ اليوم، الذي يئن من أذى أهله قبل أذى أعدائه.

هذه اللغة العربية التي فقدت في زمننا عزها وحسنها، وغدت تحن إلى مجدها العتيق الذي رحل برحيل أهله الذين غيبتهم الدهور السحيقة.

إن المسلمين كما يعانون من مجازر دموية من قبل أعدائهم أو الظالمين فيهم؛ فإن لغتهم تعاني كذلك من مجازر لغوية لا تحدث على أيدي عامة الناس الذين لم يبق من لغة العرب على ألسنتهم إلا بقايا من الكلمات التي أضحى اللحن دثارها واللهجة المناطقية شعارها.

لم تكن المصيبة الكبيرة هنا إنما المصيبة اللغوية أن تحدث تلك المجازر على منابر التوجيه الخطابي الذي يستقبله عدد كبير من السامعين والقارئين من أهل اللغة العربية.

يسيل دم العربية مسفوكًا على ألسنة بعض الخطباء على منابر الجمعة وغيرها من الذين ليس لهم من العربية إلا النسبة، حينما يَسلُبون المنصوب علامة نصبه ويقلدونه علامة رفع أو جر ظلمًا وعدوانا، ويأتون إلى المرفوع فينزلونه عن رفعه

بعلامة جر جائرة.

فيقول ذلك الخطيب الظالم للعربية والمستمعين معًا على سبيل المثال:

يا عبادُ الله، ويا مسلمين، ولليمنيون، ولم يستطيعُ أحد اليوم كذا، وقوموا إلى صلاتَكم!!!

فتقع تلك اللحون الجلية على الأسماع وقع صوت الصواريخ على الآذان.

بل ربما لا تسلم من هذا الظلم النحوي من ذلك الخطيب الآياتُ القرآنية. فكم يعتدي عليها ويحرفها!

ولن نتحدث عن الأخطاء الصرفية ولا الأخطاء اللغوية، ولا الأخطاء في سائر علوم العربية التي نسمعها من بعض الخطباء على أعواد المنابر.

وإلى مكان ثانٍ نجد فيه مجازر أخرى للعربية؛ إنه منبر الإعلام: المسموع والمقروء والمرئي.

فقد طغت اللهجات المحلية على ألسنة بعض المذيعين وأصحاب البرامج الحوارية في بعض الإذاعات والقنوات، وكم فشت الأخطاء النحوية واللغويةُ والإملائية والصرفية في بعض الصحف والمجلات.

بل حتى في نشرات الأخبار التي يحاول المحررون فيها الدقة واختيار أحسن المذيعين ما زالت الأخطاء العربية حاضرة، وغلبة لهجة الحروف بالعامية موجودة؛ كتبديل الثاء إلى سين، والطاء إلى دال والدال إلى طاء والذال إلى زاي والقاف إلى غين.

أما تسكين الحروف المتحركة في أو اخر الكلمات فحدث عن البحر!

وكم يحصل في تلك الوسائل من خلط بين مضارع الفعل الثلاثي ومضارع الفعل الرباعي، وبين اسم الفاعل واسم المفعول، وبين إفعال وأفعال، والاسم والمصدر، واسم المكان واسم الآلة.

وكم تسمعون هناك من هذه الكلمات الملحونة كقول بعضهم: (جاء لوحده) بدل (وحده)، و(أكفّاء) بدل (أكفاء)، و(سويًا وسوية) بدل (معًا) إلى آخر أمثال هذا.

أما في وسائل التواصل الاجتماعي فكم نرى من ضحايا من كلمات العربية وجملها وأساليبها، إذ قلّ من يتقن الكتابة العربية الصحيحة في منشوراته وتغريداته ورسائله.

فيا حسرة العربية وبؤسها اليوم!

وإلى ساحة أخرى نرى فيها حزنًا جديداً للعربية ألا وهو تبديل العربية باللغات الأخرى كالإنجليزية في الأسماء التي تبدو على بعض اللافتات المبثوثة في الشوارع وعلى المحلات التجارية والمشافي والمطاعم وغيرها.

وإذا وجدنا تلك اللافتات بالأسماء العربية فإن كثيراً منها لا يخلو من أغلاط ظاهرة في النحو والإملاء والصرف.

وفي دولة عربية في زمن جميل صدر قانون بمنع كتابة الأسماء على اللافتات بغير العربية وبطريقة ملحونة، فلو عمم هذا القانون في سائر الدول العربية اليوم

لسعدت العربية وسعد محبوها.

ولو فكرنا قليلاً وقلنا: ما أسباب هذه المجازر التي أصيبت بها اللغة العربية اليوم في مناحٍ قولية شتى؟

سنجد من الأسباب:

١-الهزيمة التي يعاني منها المسلمون اليوم عربهم وعجمهم، فالمغلوب يسعى لمحاكاة غالبه والحرصِ على محاكاته في لغته وسلوكه وحبه وبغضه.

٢- قلة العناية الرسمية من الحكومات بهذه اللغة العزيزة.

٣- هبوط مستوى التعليم في المدارس والجامعات؛ حيث غدا قصد الطالب نيلَ الشهادة لا نيلَ العلم.

٤- ضعف المؤدين لرسالة التعليم لغويًا، وربما دُرِست مادة اللغة العربية على يد من يسيء إليها أكثر مما يحسن؛ لقلة معرفته بها، ولتعليمها باللهجة العامية، أو بأداء ملحون.

٥- التوسع الكبير في معاهد اللغات الأجنبية، ووجودُ فرص عمل لمن يتقن غير العربية، مما زهد المتعلمين في لغتهم.

٦- البيئة التي يعيشها الناس اليوم؛ فإنها بيئة فاسدة لغويًا، فحينما لا يعيش الإنسان في محيط لغوي سليم ماذا يُنتظر منه تُجاه اللغة العربية؟!

قال بعض الغيارى على اللغة: "إذا كانت لغةُ أكثرِ من يتولى التعليمَ والإعلام ليست عربية، فما حال مَن يتلقّى هذه اللغةَ عن ضَعَفَةٍ لا يتجاوز معجمهم

اللفظي ألفاظاً لا يتجاوزونها في العبارة عن أغراضهم، ولا يراعون فيما يتولّون قواعد اللغة وأساليبها؟"[١].

ومن باب العدل والإنصاف: هناك برامج أطفال جيدة تبث بين الأطفال التحدث بالعربية الفصحى، وعلى ألسنة ممثلين مبدعين في النطق السليم. هذه ينبغي حث الأطفال عليها، وإبعادهم عن برامج الأطفال التي تتحدث بالعامية –مع ما في بعض برامج الأطفال من الأخطار التربوية. لكن هناك برامج جيدة من الناحيتين: اللغوية والتربوية.

٧- استخفاف المتعلمين - فضلاً عن بقية الناس - باللغة العربية، والنظرُ إلى الجهل بها على أنه أمرٌ لا يعيب صاحبَه.

على خلاف ما كان عليه الأمر في أيام عز اللغة:

فقد كان ابن عمر وابن عباس يضربان أولادَهما على اللَّحن[٢].

وقال عبد الملك بن مروان: اللحن في الكلام أقبح من التّفتيق في الثوب، والجدريِّ في الوجه. وقال: الإعراب جمال للوضيع، واللحن هجنة على الشريف وقال: تعلموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض، وقيل له: لقد عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين، قال: شيّبني ارتقاء المنابر وتوقّعَ اللحن[٣].

---

[١] أرشيف منتدى الألوكة.

[٢] كنز الكتاب ومنتخب الأدب (١/ ٨٧).

[٣] العقد الفريد (٢/ ٣٠٨).

ودخل رجل على أحد الأمراء في زمن فخر اللغة فقال: إن أبينا هلك وترك مال كثير فوثب أخانا على مال أبانا فأخذه.

فقال ذلك الأمير: لا رحم الله أباك، ولا نَيَّح عظم أخيك، ولا بارك لك فيما ورثت، أخرجوا هذا اللحّان عني. فأخذ بيده بعض الخدم وقال: قم فقد آذيت أميرُ المؤمنين -بالضم-. فقال الأمير: وهذا أيضًا اسحبوا برجله[1].

---

[1] سمط اللآلي في شرح أمالي القالي (٢/ ٦٦).

النحو: تعريفه وتاريخه

كان العرب عند بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد وصلوا إلى ذِروة الرقي اللغوي، وسماء السمو البياني، وغدوا يَرضعون العربية النقية عن بيئتهم السليمة كما يرضعون اللبن عن أمهاتهم، فنزل القرآن بلغتهم التي بها ينطقون، فعرفوه ووعوه، وأدركوا مراميه بعد أن فهموا معانيه، فلم يشتبه عليهم الفاعل بالمفعول، ولا الفعل بالاسم، ولا الأمر بالنهي، وغيرُ ذلك من القوالب المعينة على فهم المعاني.

غير أن رسالة هذا الدين لما كانت عالمية فقد خالط العربَ الأقحاح غيرُهم من الأعاجم فبدأ انحراف اللسان في تلك البيئة الفصيحة يطل على ألسنة أولئك المسلمين الجدد، وهم معذورون بعجمتهم.

ففي عهد النبي عليه الصلاة والسلام كان في الصحابة -رضي الله عنهم- بلال الذي كان يرتضخ لُكْنة حبشية، وصهيب الذي كان يرتضخ لكنة رومية، وسلمان الذي كان يرتضخ لكنة فارسية. أي: أن كلاً منهم كان ينزع إلى لغة قومه، ولا يستمر لسانهم على العربية استمرارا.

وفي عهد الصحابة خرج الإسلام عن الجزيرة العربية إلى بلاد العجم من الفرس والروم، فبدأت السجية العربية تخف، وملكتها تتغير، وقد كان لذلك التغير أسباب:

أولاها: دخول بعض العجم الإسلامَ واختلاطُهم بالمجتمعات العربية الصِّرفة،

مما بث فيها القول الملحون الذي غزا السليقة العربية في عقر دارها، "والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع" كما قال ابن خلدون[١].

بيد أن بعض أولئك الأعاجم -عبر التاريخ- تعلّم العربية وبرع فيها حتى صار يعلِّم بعضهم العرب.

ثانيها: ذهاب المسلمين الفاتحين إلى بلاد العجم واستقرار بعضهم فيها، مما جعل بعض أولئك العجم يتعلمون العربية بالسماع، ولكنها عربية ملحونة، فكان أولئك الفاتحون يسمعون العربية التي ينتشر فيها اللحن.

ثالثها: أن بعض العرب الفصحاء صارت لهم زوجات وجوارٍ من نساء العجم وولدن لهم، فجاء الجيل الجديد هذا فتربى على أيدي تلك الأمهات على عربية ملحونة.

ومن هنا بدأ اللحن يشيع في المجتمعات الإسلامية.

قال الإشبيلي: "ولم تزل العرب تنطق على سجيَّتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجًا، وأقبلوا إليه أرسالًا، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة، واللغات المختلفة، ففشا الفساد في اللغة والعربية، واستبان منه في الإعراب الذي هو حَلْيها، والموضِّح

---

[١] تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٥٤).

لمعانيها"[١].

إن هذا الغزو الذي اجتاح السليقة العربية أقلق ذوي الغيرة عليها، بل استثار الخوفَ على دين الله القائمِ على الكتاب والسنة، حيث خافوا بذهاب الملكة أن يذهب فهمُ القرآن والسنة، ففكروا مليًا في وضع قانون يضبط اللساني العربي، ويحافظ على سلامة الفهم للغة القرآن، فاجتمع الرأي على تأسيس علم سمي فيما بعد بالنحو.

قال ابن خلدون: "وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسًا، ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردةً شِبهَ الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل" أن الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع "، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا، وتسميةِ الموجِب لذلك التغيرِ عاملا، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم، فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، اصطلحوا على تسميتها بعلم النحو"[٢].

وقبل أن نتحدث بإيجاز عن التقعيد والتأليف في هذا الفن العظيم نحب أن نبين معنى النحو، ولم سمي بهذا الاسم المختصر الجميل؟

---

[١] طبقات النحويين واللغويين (ص: ١١).

[٢] تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٥٤).

فعلم النحو هو: علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعرابًا وبناء "[١].

وقد سمي النحو بهذا الاسم لأن من معاني النحو لغةً: القصدَ، فسمي النحو بذلك؛ لأن المتكلم ينحو -أي: يقصدُ- بتعلمه كلامَ العرب[٢].

وقالوا كذلك: إن الكلام ينقسم قسمين: كلام ملحون، وكلام غير ملحون؛ فالملحون هو الذي لحُن به عن القصد، وكذلك معنى اللّحن، إنما هو العدول عن قصد الكلام إلى غيره، وما لم يكن ملحونًا فهو على القصد، وعلى النحو، ومن ذلك سمي النحو نحواً، والمستقيم من طريق النحو هو ما كان على القصد سالما من اللّحن.

وقيل سمي بذلك لأن أبا الأسود لما وضع قواعده الأولى قال للناس: انحوا نحوه، فسمي نحواً.

وقيل: إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه رُويَ عنه أنه ألقى إلى أبي الأسود رقعة فيها كلام في أصول النحو فقال له:" انح هذا النحو، وأضف إليه ما وقع لك "ثم عرض عليه أبو الأسود ما وقع له فاستحسنه علي وقال:" ما أحسن هذا النحوَ الذي نحوتَه! فلذلك سمي نحوا "[٣]. هكذا قالوا. والله أعلم.

---

[١] شرح ألفية ابن مالك للحازمي (٢٨/ ١).

[٢] المنهاج المختصر في علمي النحو والصرف (ص: ١١).

[٣] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٧/ ٣٥).

نعود إلى ما أشرنا إليه قبلُ فنقول: إن النحو العربي قد مر في تقعيده والتأليف فيه بمراحل أربع-كما قال بعض الباحثين المعاصرين[١]-:

المرحلة الأولى: **الوضع والتكوين**، وتبدأ هذه المرحلة من عصر واضع النحو أبي الأسود إلى أول عصر الخليل بن أحمد.

ويمكن تقسيم علماء هذه المرحلة إلى طبقتين:

الطبقة الأولى: وهي التي أخذت عن أبي الأسود واستمرت في تثمير ما تلقته عنه، ووفقت إلى استنباط كثير من أحكامه، وقامت بنشره بين الناس، وكان من أفذاذ هذه الطبقة: عنبسةُ بن معدان الفيل، ونصر بن عاصم الليثي، وعبد الرحمن بن هرمز، ويحيى بن يعمر.

وكان جل مجهود هذه الطبقة السماعَ والحفظ والروايةَ لذلك فحسب.

الطبقة الثانية: كانت أكثر عدداً من سابقتها، فقد كانت أوفر منها حظًا في هذا الشأن؛ إذ وطأت لها سبيله فازدادت المباحث لديها، وأضافت كثيراً من القواعد، ونشأت حركةُ النقاش بينها، فجدت في تتبع النصوص واستخراج الضوابط ما هيأ لها وقتُها، واستطاعت التصنيف فدونت فيه بعض كتب مفيدة.

ومن أعلام هذه الطبقة: عبد الله بن إسحاق الحضرمي، وأبو عمرو بن العلاء صاحب التصانيف الكثيرة، وعيسى بن عمر الثقفي صاحب الكتابين في النحو:" الجامع والإكمال "وقد نوه عن فضلهما الخليل بن أحمد بقوله:

---

[١] نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة (ص: ٣٢) وما بعدها.

ذهب النحو جميعًا كله غيرَ ما أحدث عيسى بن عمرْ
ذاك إكمال وهذا جامعٌ فهُما للناس شمس وقمرْ

غير أن الكتابين لم يصلا إلينا.

المرحلة الثانية: النشوء والنمو، وتبدأ هذه المرحلة من عهد الخليل بن أحمد البصري، وأبي جعفر محمد بن الحسن الرؤاسي إلى أول عصر المازني البصري وابن السكيت الكوفي.

وكانت هذه المرحلة مرحلة جمع وتقعيد وتأليف ومنافسة بين البصريين والكوفيين.

ومن أعلام هذه المرحلة: الخليل وتلميذه النجيب سيبويه الذي ألف مصنفه الخالد" الكتاب ".

ومن أعلامها أيضًا: أبو جعفر الرؤاسي وابن السكيت والكسائي والفراء.

المرحلة الثالثة: النضوج والكمال، وتمتد هذه المرحلة من عهد أبي عثمان المازني البصري إمام الطبقة السادسة ويعقوب ابن السكيت الكوفي إمام الرابعة، إلى آخر عصر المبرد البصري شيخ السابعة، وثعلب الكوفي شيخ الخامسة.

وفي هذه المرحلة كان هناك تفصيل لما أجمل، وتوضيح لما أشكل، وفصل النحو عن الصرف، واتساع في المناظرات النحوية فتمت أصول النحو وانتهى الاجتهاد فيه بين البصريين والكوفيين على يدي الإمامين: المبرّد خاتَم البصريين، وثعلب خاتم الكوفيين.

ومن كتب هذه المرحلة: المقتضب للمبرد، والفصيح وإعراب القرآن لثعلب.

المرحلة الرابعة: الترجيح والبسط، وفي هذه المرحلة برز علماء نظروا في قواعد المذهبين البصري والكوفي فرجحوا بينهما فاصطفوا مسائل ذات بال مزيجًا من المذهبين، على أنهم قد أسلمهم هذا الاستقراء البالغ خلال تلك الأيام إلى العثور على قواعد أخرى من تلقاء أنفسهم لا تمت بصلة إلى المذهبين تولدت لهم من اجتهادهم قياسًا وسماعًا. فولد من ذلك المذهبُ النحوي البغدادي.

ثم انتشر التأليف في النحو منذ ذلك الوقت إلى عصرنا هذا.

أهمية النحو والحاجة إليه

اللغة العربية رأس مال الكاتب والمتكلم، وأسّ مقاله، وكنز إنفاقه، والنحو هو ميزان تقويمها وقانونها الذي تُحكَم به في كل صورة من صورها، وهو وسيلة المستعرب، وسلاح اللغوي، وعماد البلاغي، وأداة المشرّع والمجتهد، والمدخل إلى العلوم العربية والإسلامية، ومركب الإفهام الذي لا يكبو، وسيف القول الذي لا ينبو، وحَلي الكلام، وهو له كالملح للطعام.

وهو السبيل الذي به تمكنا من نظم العربية ونثرها كما كان أربابها السابقون، وبه أُطلق لساننا في العصور المختلفة صحيحًا فصيحًا كما أُطلق لسانهم، وأجري كلامنا في حدود مضبوطة سليمة كالتي يجرى فيها كلامهم، وإن كان ذلك منهم طبيعة، ومنا تطبعًا.

إنه النحو الذي لا يستغنى عنه ولا يوجد بدّ منه[1].

إِنَّمَا النَّحْوُ قِيَاسٌ يُتَّبَعْ ... وَبِهِ فِي كُلِّ عِلْمٍ يُنتَفَعْ

وإذا ما أبصر النحوَ فتًى ... مر في المنطق مرًّا فاتسعْ

فاتقاه كلُّ من جالسه ... من جليس ناطق أو مستمعْ

وإذا لم يبصر النحوَ الفتى ... هاب أن ينطق جبنًا فانقطعْ

فتراه ينصب الرفع وما ... كان من نصب ومن خفض رفعْ

يقرأ القرآن لا يعرف ما ... صرفَ الإعرابَ فيه وصنع

---

[1] النحو الوافي (١/ ٢).

والـــذي يـــعـــرفـــه يـــقـــرؤه وإذا ما شك في حـرف رجـع
نـــاظـــرًا فـــيـــه وفي إعـــرابـــه فإذا ما عرف اللحنَ صـــــــــدع
كـم وضـــيـع رفـع الـنـحـوُ وكـم من شريف قد رأيناه وضـــــــعْ[1].

والنحو مفتاح العلوم والطريق الأول لفهمها، قال وكيع:" أتيت الأعمش أسمع منه الحديث وكنت ربما لحنت فقال لي: يا أبا سفيان تركت ما هو أولى بك من الحديث، فقلت: يا أبا محمد، وأي شيء أولى من الحديث؟ فقال: النحو. فأملى عليّ الأعمش النحو ثم أملى عليّ الحديث "[2].

وعن أبي زيد النحوي قال: "كان الذي حداني على طلب الأدب والنحو أني دخلت على جعفر بن سليمان فقال: ادنه فقلت: أنا دني فقال: لا تقل -يا بني- أنا دني ولكن قل أنا دان"[3].

إن هذا العلم الشريف حمل أهله المحبين له على الحث على تعلمه ومعرفة أهميته، ودعاهم إلى الحفاظ عليه من صيالة اللحن والوقوف في وجه اللحانين بالنصيحة.

مر عمر بن الخطاب على قوم يرمون فيخطئون في رميهم فقال: «بئس ما رميتم» فقالوا يا أمير المؤمنين، إنا قوم متعلمين، فقال:" والله لذنبكم في لحنكم أشد

---

[1] أصول النحو ١ - جامعة المدينة (ص: ١٨٤).
[2] الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٦).
[3] الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٧).

عليّ من خطئكم في رميكم "[١].

وقال أيضًا:" تعلموا العربية؛ فإنها تزيد في المروءة "[٢]. وكان النحو يسمى بالعربية قبل هذا الاسم الذي استقر عليه.

وقال ابن الأثير:" أما علم النحو فإنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجدَ في تعليم الخط، وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي، ليأمن معرّة اللحن "[٣].

بل قد غدا النحو أهم علوم العربية وأكثرها حاجة في الكلام، قال بعض أهل العلم:" الذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو؛ إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة فيُعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجُهل أصل الإفادة. وكان من حق علم اللغة التقدمُ لولا أن أكثر الأوضاع باقيةٌ في موضوعاتها لم تتغير، بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه؛ فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر؛ فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة؛ إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة، وليست كذلك اللغة "[٤].

نقول: وإذا كان النحو ذا أهمية كبيرة في مناحي القول والكتاب؛ فإن أهميته والحاجة إليه في معرفة الإسلام وفهم القرآن والحديث أشد حاجة وأعظم أهمية

---

[١] الحجة للقراء السبعة (١/ ٣٤٤).

[٢] الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٥).

[٣] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ٤١).

[٤] تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٥٣).

وآكد مطلبا.

ولنصغ أسماعنا لأهل العلم وهم يتحدثون عن مصداق هذا:

قال ابن الصلاح:" فحق على طالب الحديث أن يتعلم من النحو واللغة ما يتخلص به من شين اللحن والتحريف ومعرتهما "[١].

وقال الجرجاني- وهو يرد على المهونين من شأن النحو-:" وأمَّا زهدُهم في النَّحو واحتقارُهم له، وإصغارُهم أمرَهُ، وتهاونُهم به، فصنيعُهم في ذلك أشنعُ من صَنيعهم في الذي تَقدَّم، وأَشْبَهُ بأن يكونَ صَدّاً عن كتابِ الله، وعن معرفةِ معانيه؛ ذاكَ لأَنهم لا يَجِدون بُدًّا من أنْ يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذا كان قد علم أن الألفاظ معلقة على مَعانيها حتى يكونَ الإعرابُ هو الذي يَفتحها، وأنَّ الأغراضَ كامنةٌ فيها حتى يكونَ هو المستخرِجَ لها، وأنه المعيارُ الذي لا يتبيَّن نقصانُ كلامٍ ورجحانُه حتى يُعرضَ عليه، والمقياسُ الذي لا يُعرفُ صحيحٌ من سَقيمٍ حتى يُرجع إليه، لا يُنكِرُ ذلك إلاَّ من يُنكِر حِسَّه، وإلاَّ مَنْ غالطَ في الحقائقِ نَفْسَه، وإذا كان الأَمرُ كذلك، فليتَ شِعري ما عُذْرُ مَن تَهاونَ به وزَهِدَ فيه، ولم يَرَ أنْ يستقيه من مصبه، ويأخذه من معدنه، ورضي بالنَّقصِ والكمالُ يُعرض له، وآثرَ الغَبينةَ وهو يجد إلى الربح سبيلًا "[٢].

وقال ابن حزم:" فمن لم يعلم النحو واللغة، فلن يعلم اللسان الذي به بيّن الله

---

[١] مقدمة ابن الصلاح (ص: ١٢٠).

[٢] دلائل الإعجاز (١/ ٢٨).

لنا ديننا وخاطبنا به ومن لم يعلم ذلك فلن يعلم دينه، ومن لم يعلم دينه ففرض عليه أن يتعلمه، وفرض عليه واجب تعلم النحو واللغة، ولابد منه على الكفاية كما قدمنا، ولو سقط علم النحو واللغة لسقط فهم القرآن وفهم حديث النبي عليه الصلاة والسلام، ولو سقطا لسقط الإسلام. وأما من وسم اسمه باسم العلم والفقه وهو جاهل للنحو واللغة فحرام عليه أن يفتي في دين الله بكلمة، وحرام على المسلمين أن يستفتوه؛ لأنه لا علم له باللسان الذي خاطبنا الله تعالى به، وإذا لم يعلمه فحرام عليه أن يفتي بما لا يعلم "[1].

وقال السيوطي في شرح ألفيته:" وقد اتفق العلماء على أن النحو يُحتاج إليه في كل فن من فنون العلم لاسيما التفسيرِ والحديث ".

وقال خالدٌ الأزهري في أول إعراب ألفية ابن مالك:" إن معرفة الإعراب من الواجبات التي لابد لكل طالب علم منها، ومن المهمات التي لا يستغني الفقيه عنها "[2].

وقال أبو القاسم الأصفهاني:" النحو نصاب العلم ونظامه وعموده وقوامه ووشي الكلام وحلّته وجماله وزينته، ولم تزل الأئمة من الصحابة الراشدين ومَن تلاهم من التابعين، يحضُّون على تعلُّم العربية وحفظها، والرعاية لمعانيها؛ إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، فبها أنزل الله كتابه المهيمن على سائر كتبه، وبها

---

[1] رسائل ابن حزم (٣/ ١٦٢).

[2] توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (١/ ١٣٧).

بلَّغ رسولُه -عليه السلام- وظائفَ طاعته، وشرائع أمره ونهيه "[١].

ألا فلننظر – معشر الخطباء-إلى هذه الأهمية للنحو وعظم الحاجة إليه؛ لنحرص على تعلم هذا الفن وممارسة قواعده في كتاباتنا وخطاباتنا، وإنها لمنزلة علية لمن أحب النحو وأتقنه ونسب إليه:

النحوُ يَبسُط من لسان الألكنِ ... والمرء تكرمه إذا لم يلحنِ

وإذا التمست من العلوم أجلّها ... فأجلّها حقّاً مقيم الألسن

لحن الشريف يحطه عن قدره ... فتراه يَسقط من لحاظ الأعين

وترى الدنيء إذا تكلم معرباً ... نال النباهة باللسان المعلنِ

فاطلب هديت ولا تكن متأبياً ... فالنحو زين العالم المتفنن

والنحو مثل الملح إن ألقيته ... في كل صنف من طعام يحسُنِ[٢].

---

[١] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (١/ ٥٥).

[٢] التمثيل والمحاضرة (ص: ١٦١).

اللحن في الإعراب: أوليته وخطره

من عدل عن طريق النحو الصحيح فهو لاحن، فإن كثر ذلك العدول منه فهو رجل لحّانة، وذلك الانحراف منه لحن، فاللحن في علم النحو إذن هو: الخطأ في تحريك حروف آخر الكلمة من ضم وكسر وفتح وسكون.

ولم يكن هذا الكائن أيام سمو العربية إلا منعدمًا، ثم ولد بعد ذلك فصار غريبًا منبوذاً واللغة مازالت في عزها، ثم لما كثر نسله لم يستغرب حينئذ، بل عندما انقرض جيل العربية سليقةً وعاش جيل اللحن وطال زمنه أضحى في المجتمعات العربية هو المعرفة، والحديثُ بالعربية من غير لحن غدا هو النكرة، نقولها بكل أسى.

لقد نزل القرآن الكريم والناس بعيدون عن اللحن، فلما مات رسول الله عليه الصلاة والسلام وتبعه بقليل خليفته الراشد أبو بكر رضي الله عنه، وجاءت إمارة عمر رضي الله عنه واتسعت رقعة الدولة الإسلامية؛ طفق الناس يسمعون كلمة هنا وكلمة هناك جرى فيها اللحن، بل لم تسلم من ذلك قراءة القرآن من إحداث اللحانين:

فقد روي أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بجرّ (رسولُه) متوهمًا عطفه على المشركين. فقال: أوَ يبرأ الله من رسوله؟!

فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر ألا يُقرأ القرآن إلا من يحسن

العربية[١].

وروي أيضًا أن كاتبًا لأبي موسى الأشعري أرسل إلى عمر كتابًا وفيه: من أبو موسى...!" فلما وصل الكتاب عمر كتب إليه عمر: أن قنّع كاتبك سوطًا؛ معاقبة على لحنه[٢].

ولما جاءت خلافة عليٍّ رضي الله عنه وكان اللحن قد خرج عن السيطرة سمع أبو الأسودِ الدؤلي ابنته ليلة تقول له: يا أبتِ، ما أحسنُ السماءِ، قال نجومُها، فقالت: إني لم أسأل عن أحسنها إنما تعجبت من حسنها، فقال قولي: ما أحسنَ السماءَ[٣].

وفي رواية أنه دخل على ابنة له بالبصرة فقالت له: يا أبت ما أشدُّ الحرِّ، فقال: شهر ناجر يعني: شهر صفر؛ فقالت: يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك، فقال قولي: ما أشدَّ الحرَّ[٤].

ثم لم يزل الأمر في تطور خطير حيث وصل إلى بعض الأمراء في بني أمية ولم يعد مقتصراً على المستعربين أو سُوقة الناس، وكان ممن أثر عنه لحن كثير: الوليد بن عبد الملك؛ فقد دخل على الوليد بن عبد الملك رجل من أشراف قريش فقال له الوليد: من خَتنَك؟ قال له: فلان اليهودي، فقال: ما تقول؟ ويحك! قال: لعلك

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (١/ ٢٠٦).

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (١/ ٢٠٨).

(٣) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة (ص: ٢٤).

(٤) سبب وضع علم العربية (ص: ٤٢).

إنما تسألني عن ختني يا أمير المؤمنين، هو فلان بن فلان[١].

والختن أقارب زوجة الرجل وزوج ابنته. ولما لحن الوليد فهم الرجل أول مرة أنه يسأله عن الذي قام بختنه.

بل كان الوليد هذا لا يستطيع تجنب اللحن حتى على المنبر، فقد ذكره أبو الزناد يوماً فقال: "كان لحاناً، كأني أسمعه على منبر النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: يا أهلُ المدينة!"[٢].

بل كان لا يستطيع تجنبه حتى في قراءة بعض آيات القرآن: فقد قرأ يومًا على المنبر: "يا ليتها كانت القاضيةُ" بضم التاء المربوطة، فقال عمر بن عبد العزيز "وكان تحت المنبر": يا ليتها كانت عليك وأراحتنا منك[٣].

ولما كان الأعراب يسمعون ذلك اللحن حينما يزورون الحواضر يؤلمهم أيما إيلام، وربما يتندرون باللحانين:

قال رجل لأعرابيّ: كيف أهلِك؟ بكسر اللام وهو يريد السؤال عن أهله فتوهّم أنه يسأل عن كيفية هلاك نفسه، فقال: صلباً إن شاء الله[٤].

وسمع أعرابي مؤذنًا يقول: أشهد أن محمداً رسولَ الله بنصب رسول، فقال:

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة (ص: ١٧).

(٢) تاريخ الإسلام (٦/ ٤٩٩).

(٣) الكامل في التاريخ (٤/ ٧١).

(٤) من تاريخ النحو العربي (ص: ١٥).

ويحك! يفعل ماذا؟[١].

والسبب أن الجملة بنصب رسول ناقصة تحتاج إلى خبر.

ولا ريب أن العرب الخلص عندما بدأ اللحن في الظهور كانوا يبغضونه وينزلون من قدر صاحبه؛ قال عمر بن عبد العزيز: "إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأردُّه عنها، وكأني أقضم حب الرمان الحامض لبغضي استماع اللحن، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب فأجيبه إليها؛ التذاذاً لما أسمع من كلامه"[٢].

وكان يقول: "أكاد أَضْرَسُ إذا سمعت اللحن"[٣].

وكان عمر بن عبد العزيز أشد الناس في اللحن على ولده وخاصته ورعيته، وربما أدَّب عليه. وحينما يسمع اللحن يرد على صاحبه؛ قال بشر بن مروان- وعنده عمر بن عبد العزيز- لغلام له: ادع لي صالح. فقال الغلام: يا صالحا. فقال له بشر: ألق منها ألف. فقال له عمر: وأنت فزد في الفك ألفا[٤].

إن اللحن وإن كان قبيحًا في عموم الكلام إلا أنه في قراءة القرآن والحديث النبوي وتعليم الدين أشد قبحًا.

فما أسوأ ذلك المتكلم الذي يقف على أسماع الناس-سواء كان خطيبًا أم محاضراً

---

[١] نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة (ص: ١٧).

[٢] الأضداد لابن الأنباري (ص: ٢٤٤).

[٣] الأضداد لابن الأنباري (ص: ٢٤٥).

[٤] البيان والتبيين (١/ ١٤).

أم إعلاميًا- ثم يتلو آيات من القرآن على غير ما أنزلها الله، فيرفع من كلماتها منصوبها، وينصب مرفوعها، ويجر ما وجب رفعه أو نصبه، ويحرك ما كان ساكناً ويسكن ما كان متحركًا.

وكما يقبح ذلك في قراءة القرآن يقبح أيضًا في قراءة الحديث وشؤون الدين الأخرى.

سمع أبو عمروِ بنِ العلاء أبا حنيفة يتكلم في الفقه ويلحن فأعجبه كلامه واستقبح لحنه فقال: "إنه لخطاب لو ساعده صواب. ثم قال لأبي حنيفة: إنك لأحوج إلى إصلاح لسانك من جميع الناس"[1].

وإذا كان القبح للحن في الخطاب فإنه في الكتابات أشد قبحًا؛ لأنه يدل عن جهل كبير، فالإنسان في حال الكتابة يتروى ويراجع ما كتب بخلاف المتكلم على البديهة.

إننا حينما نطالب اليوم بتجنب اللحن فلا نريد أن يعرب المرء في جميع كلامه، ولكننا نريد البعد عن اللحن في الخطاب والكتاب، أما الكلام الذي يدور بين المرء وغيره في بيته أو عمله أو سوقه أو مزحه أو غير ذلك فللألسنة أن تتحدث على سجيتها ولهجتها كيفما شاءت.

قال القَلْقَشَنْدي: "والذي يقتضيه حال الزمان، والجريُ على منهاج الناس أن يحافظ على الإعراب في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وفي الشعر والكلام

---

[1] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/ ٢٦).

المسجوع، وما يدوّن من الكلام، ويكتب من المراسلات ونحوها، ويغتفر اللحن في الكلام الشائع بين الناس الدائر على ألسنتهم مما يتداولونه بينهم ويتحاورون به في مخاطباتهم؛ وعلى ذلك جرت سنّة الناس في الكلام مذ فسدت الألسنة، وتغيرت اللغة حتّى حكي أن الفرّاء -مع جلالة قدره وعلوّ رتبته في النحو- دخل يومًا على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه؛ فقال جعفر بن يحيى: يا أمير المؤمنين إنه قد لحن- فقال الرشيد للفرّاء أتلحن يا يحيى؟ فقال يا أمير المؤمنين! إن طباع أهل البدو الإعرابُ وطباع أهل الحضر اللحن، فإذا حفظتُ أو كتبت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت- فاستحسن الرشيد كلامه. وقد قال الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين»: «ومتى سمعتَ حفظك الله نادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها؛ فإنك إن غيرتها بأن لحنت في إعرابها أو أخرجتها مخرج كلام المولّدين والبلديّين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير، وإن سمعت نادرة من نوادر العوامّ وملحة من ملحهم فإيّاك أن تستعمل لها الإعراب، أو تتخير لها لفظًا حسنًا؛ فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها التي وضعت لها، ويذهب استطابتهم إياها[1].

وصدق أبو عثمان في هذا الحكم العدل.

---

[1] صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (١/ ٢١١).

علم الأدب: أهميته والطريق إليه

علم الأدب من علوم العربية الجميلة، ومعناه: الإجادة في فني المنظوم والمنثور، على أساليب العرب ومناحيهم، وتلك الإجادة لا تعني الإنتاج وحده بل تشمل الإنتاج والتذوق أيضًا، فهناك أديب يحسن الكتابة نثرها أو نظمها أو يحسنهما معًا، ويعرف جميل القول من غيره، ويحيط ذهنه بمعرفة جيدة مما أنتجه الأدباء قديمًا وحديثا.

وهناك أديب لا يحسن النظم ولا النثر، ولكنه يمتلك حاسة التذوق الأدبي فيميز بين الجيد والرديء والنفيس والخسيس مما أنتجته الألسنة والأقلام، وفي مخزونه الحفظي مادة خصبة من روائع الأدب تسعفه متى شاء.

والإنسان إذا كان له حظ جيد من هذا الفن ورزق التوفيق فإن أدبه سيرشده إلى الخير ويأخذ بحجزته عن الشر؛ إذ لا ريب أن متعاطي الأدب بهذا المفهوم الخاص إذا رق طبعه وصفا فهمه وأسعفته هداية الله؛ فإنه سيؤول به إلى مكارم الأخلاق فيفعل ويقول ما كان محموداً منها، ويدع ما كان مذموما. وبهذا يصل إلى رتبة الأدب العام فيكون أدبه نوراً قذفه الله في قلبه أبصر به طريق الحق فاتبعه، وطريق الغي فتنكبه.

وأما من كان مخذولاً واشتغل بعلم الأدب بالمعنى الفني الصرف، وصار لا يفهم من ذلك العلم إلا تغذية الشهوات وتسخير المعرفة في سيء القول والعمل؛ فإن أدبه أدب ناقص يحتاج إلى تكميل؛ فكم من أديب لا أدب له في

باب الأخلاق الحسنة، والسلوك المستقيم.

إن الأدب بالمعنى العلمي علم له أهمية عظيمة في الحياة الإنسانية، وأثر كبير في رقي النفس البشرية، فهو يصقل اللسان والقلم، ويفتح مظلات العقل والفهم، ويوسع دائرة معرفة طالبه للكون والحياة والإنسان، ويجيِّش المشاعر والعواطف، ويجلو جمالُه الطبائع، ويستحث صاحبَه على طيب الفعال، وينمي مخزونه الثقافي والأخلاقي، ويُكسبه القدرة على التعبير الجميل في المواقف التي تستدعيه، وهو أيضًا علم يَشف الروح، ويداوي بعض أمراض النفس.

فهو بهذا روض أنيق يفوح بالمتعة، ويزدهي باللذة، ويعد ملاذاً محبوبًا للتخلص من أثقال الحياة المادية، وهو طريق إلى معرفة ما سواه من العلوم، ومن ذلك فهم كتاب الله تعالى وسنةِ رسوله عليه الصلاة والسلام.

قال الميداني صاحب الأمثال:" وبعد، فإن من المعلوم أن الأدب سُلَّم إلى معرفة العلوم، به يُتَوَصَّل إلى الوقوف عليها، ومنه يُتوقَّع الوصولُ إليها، غير أن له مَسَالكَ ومَدَارج، ولتحصيله مَرَاقِيَ ومَعَارج، من رَقِيَ فيها درَجاً بعد درج، ولم تَهِم شمسُ تشميره بِعَرَج، ظفِرَتْ يَدَاه بمفاتح أغلاقه، وملكت كفاه نفائس أعْلاَقه، ومن أخطأ مِرْقَاةً من مَرَاقيه، بقي في كد الكَدْحِ غيرَ مُلاَقيه "[1].

وقال البَطَلْيَوسي:" الأدب له غرضان:

أحدهما: يقال له: الغرض الأدنى. والثاني: الغرض الأعلى. فالغرض الأدنى:

---

[1] مجمع الأمثال (١/ ٢).

أن يحصل للمتأدب بالنظر في الأدب والتمهرِ فيه قوةٌ يقدر بها على النظم والنثر.

والغرض الأعلى: أن يحصل للمتأدب قوة على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وصحابته. ويعلم كيف تبنى الألفاظ الواردة في القرآن والحديث بعضها على بعض، حتى تُستنبط منها الأحكام، وتُفرَّع الفروع، وتُنتجَ النتائج، وتُقرنَ القرائن على ما تقتضيه مباني كلام العرب ومجازاتُها، كما يفعل أصحاب الأصول.

وفي الأدب لمن حصل في هذه المرتبة منه أعظمُ معونة على فهم علم الكلام، وكثير من العلوم النظرية. فقد زهد الناس في علم الأدب، وجهلوا قدر الفائدة الحاصلة منه، حتى ظن المتأدب أن أقصى غاياته أن يقول أبياتاً من الشعر "[1].

والطريق إلى التمهر في هذا الفن الجميل: أن يكون عند الطالب له استعداد نفسي في تلقيه من حب ورغبة واستمرار، ثم يرتقي بعد ذلك إلى طلبه في مظانه، فيقرأ كثيراً كثيراً في كتبه ونَتاج أهله المجيدين في القديم والحديث، وقد قال بعض أهل المعرفة:" إن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دوارين وهي: أدب الكتاب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي عليٍّ القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها "[2].

---

[1] الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (١/ ٤٩-٥٠).

[2] مقدمة ابن خلدون (٢/ ٣٠٦).

وبعد أن ينهي القراءة في هذه الكتب ينتقل إلى غيرها من الكتب النافعة، ومن ذلك في عصرنا: كتب الرافعي؛ كوحي القلم وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية وتاريخ آداب العرب، ويقرأ للمنفلوطي في مجموعته الكاملة، ويقرأ للطنطاوي في كتبه المتعددة.

فإذا تضلع من هذا كله فليشرع في الكتابة فيبدأ على كتابة التعليق ثم المقالة ثم ما بعد ذلك، وإن كانت عنده موهبة للشعر قد صقلتها تلك القراءة الكثيرة فليبدأ بكتابة البيت والبيتين والمقطوعة ثم القصيدة، وهكذا حتى يتمرس في هذا الفن ويصبح أديبًا لامعًا تميزه الكلمة بحسن اختياره، وجميلِ تصويره، وتعهده الآذانُ بإمتاع أدبه ولذة نَتاج لسانه، وتعرفه العيون بتدفق قلمه وسحر بيانه.

وإذا كان خطيبًا فليسخر أدبه في صياغة كلامه وخطبه؛ فإن الأدب يكسو الخطب جمالاً، ويجعلها محل رغبة للسامعين، وحديث ثناء على ألسنة المتحدثين.

إبداع الأدب في وصف الأشياء

حسن وصف الأشياء، واستيعاب ما تشتمل عليه من النعوت عمل أدبي يحتاج إلى مقدرة صناعية فائقة، قد امتلأ وعاء صاحبها بالمفردات والتراكيب والأساليب التي تعينه على بلوغ غايته الوصفية، وقد انقاد خاطره لحسن التصوير، فتدفق ببديع النعت الذي يغترف من منهل ثر.

وليس حفظ اللغة والإلمام بألفاظها وعلومها يكفي وحده لإيلاد الأوصاف الفائقة، وإخراج النعوت الرائقة، بل يحتاج ذلك إلى خيال سابح مضيء لين متدفق يحسن التصوير، ويبدع التشكيل، ثم يستعين بعد ذلك بمحفوظ علوم اللغة.

وكم من إنسان كالبحر في معرفة اللغة لكنه بليد الطبع، ميت الحس، جامد القريحة، ناضب الروية، خامد الفكرة، فلا يسعفه ذلك القصور على إبداع التصوير، والتدفق بالنعوت الجميلة.

ولا ريب أن الناس يختلفون في إجادة الوصف، بل بعضهم يحسن الوصف في أشياء ولا يكون كذلك في غيرها. يقول ابن رشيق:" من الشعراء والبلغاء من إذا وصف شيئاً بلغ في وصفه، وطلب الغاية القصوى التي لا يعدوها شيء: إن مدحًا فمدحًا، وإن ذمًا فذمًا، والناس يتفاضلون في الأوصاف، كما يتفاضلون في سائر الأصناف: فمنهم من يجيد وصف شيء ولا يجيد وصف آخر، ومنهم

من يجيد الأوصاف كلها، وإن غلبت عليه الإجادة في بعضها "[1].

ويكفينا في هذا المقال نموذج واحد من الوصف الجميل نلفت به عناية الخطيب إلى أهمية الأدب وإبداعه في وصف الأشياء؛ حتى يستنير الخطيب بذلك فيسعى إلى المحاكاة في وصف الأشياء بما يناسب من على منبره.

ونموذجنا هذا جاء بقلم الأديب البارع الجاحظ، فقد قال في **مدح الكتاب**:

" الكتاب نِعم الذخر، والجليس، ونعم النزهة، والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوَحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل والزميل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاحاً، إن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل، وإن شئت سرّتك نوادره، وشجَتَك مواعظه، ومن لك بواعظ مُلهٍ، وبناسك فاتك، وناطق أخرس؛ ومن لك بطبيب أعرابي، ورومي هندي، وفارسي يوناني، ونديم مولَّد، ونجيب ممتع؛ ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده.

وبعد فما رأيت بستاناً يُحمل في رُدْن، وروضةً تُنقل في حِجر، ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى، آمنُ من الأرض وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب

---

[1] العمدة في محاسن الشعر وآدابه (٢/٢٩٥).

الوديعة؛ ولا أعلم جاراً آمن، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفايةً وعناية، ولا أقل إملالاً، ولا إبرامًا، ولا أبعدَ من مِراءٍ، ولا أتركَ لشغبٍ، ولا أزهد في جدال، ولا أكف في قتال؛ من كتاب، ولا أعم بيانًا، ولا أحسن مؤاتاة، ولا أعجل مكافأةً، ولا شجرةً أطول عمراً، ولا أطيب ثمراً، ولا أقرب مجتنى، ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجدَ في كل إِبَّان؛ من كتاب.

ولا أعلم نَتاجاً في حداثة سنه، وقربِ ميلاده، ورُخصِ ثمنه وإمكان وجوده، يجمع من السير العجيبة، والعلوم الغريبة، وآثارِ العقول الصحيحة ومحمودِ الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة، والمذاهب القديمة، والتجارِب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية، والبلادِ النازحة، والأمثال السائرة والأمم البائدة؛ ما يجمعه كتاب.

ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غباً وورده خِمساً، وإن شئت لزمك لزوم ظلك، وكان منك كبعضك.

والكتاب هو الجليس الذي لا يُطريك، والصديق الذي لا يَقليك، والرفيق الذي لا يُمِلُّك، والمستمع الذي لا يستزيدك، والجار الذي لا يستبطئك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالمَلَق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق.

والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط

لسانك، وجوّد بيانك، وفخّم ألفاظك وبجح نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك. يطيعك بالليل طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضر. وهو المعلم إن افتقرت إليه لا يحَقِرُك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عُزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك، ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرَّك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء.

وإن أمثل ما يقطع به الفُرَّاغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم؛ نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجرِبة، وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين، وتثمير مال، وربِّ صنيعة، وابتداء إنعام.

ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلا منعُه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الردية، وجهالتهم المذمومة؛ لكان في ذلك السلامةُ والغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع؛ ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى، واعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلِّ ما تشتهيه، لقد كان له في ذلك على صاحبه أسبغُ النعم، وأعظمُ المنة "[1].

وصدق من قال عن الكتاب:

---

[1] المحاسن والأضداد (ص: ٢١-٢٢)، الحيوان (١/ ٣١-٣٩).

فهْو للروح بلسمٌ وشفاءٌ وهو للعقل لذة وغذاءُ
وهو للنفس واحةٌ من سرور وهو للقلب بهجة وسناء
وهو للبال راحة ونعيم وهو للفكر صيقل وجَلاء
وهو للعلْم مصدر ومَعين وهو للجهل مِن عَناه دواء
وهو للعزِّ والفخار سبيل وهو للمجد سُلّم ولواء
ما الزمان السعيد إلا كتاب مشرقٌ صبحُنا به والمساء
فالكتابَ الكتابَ أبناء قومي فهو للمرء في الحياة الضياء
وبدون الكتاب نبقى حيارى يصنع الجهلُ بيننا ما يشاءُ

فعلى الخطيب أن يكثر من قراءة الأوصاف البديعة في كتب الأدب حتى ينمي لديه القدرة على حسن التعبير وجودة الأسلوب، ويثري ذهنه بالألفاظ الرشيقة، والجمل الأنيقة.

أثر الأدب في نجاة صاحبه

إذا بلّغ الله الإنسان ناصية البيان، ورقّاه إلى أفق الأدب فقد ينفعه أدبه يومًا من الدهر، في حال تذهب فيه حيله، ويدنو منه أجله، فيأتيه أدبه-شعراً أو نثراً- فيخرجه من بليته، وينجيه من شدته، فيستعطف بكلمات أو أبيات من غضب عليه وأراد أذيته فيعفو عنه الغضبان، ويَوَدُّه ذو الشنآن، وربما مد إليه يد العطاء والإحسان.

وقد زخرت كتب الأدب بأمثلة على ما قلنا، فمن ذلك:

أن الأعشى هجا علقمة بن علاثة بقوله:

أَعَلْقَمَ قَد حَكَّمَتني فَوَجدتَني ... بِكُمْ عالِماً عند الحُكومَةِ غائِصا

كِلا أَبَوَيْكُمْ كانَ فَرْعَ دِعامةٍ ... وَلكنَّهُمْ زادُوا وأَصْبَحْتَ ناقِصا

تَبيتونَ فِي المَشْتَى مِلاءً بُطونُكُمْ ... وجارَاتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمائِصا

فنذر علقمة دمه، وكان الأعشى كثير التطواف، فأصبح من ليلة كان يطوفها بأبيات علقمة بن علاثة، فلما نظر قائده إلى قباب الأدَم قال: واسوء صباحاه! هذه والله أبيات علقمة، وخرج فتيان الحي فقبضوا على الأعشى فأتوا به علقمة، فلما مُثل بين يديه قال علقمة: الحمد لله الذي أظفرني بك بغير عقد ولا ذمة، قال الأعشى: أو تدري لم ذاك، جُعلتُ فداك؟

قال: لتقوّلك عليَّ الباطل من غير جُرم، قال: لا، ولكن ليبلو اللهُ قدر حلمك فيّ.

فأطرق علقمة، فانبعث الأعشى يقول:

أعلقمُ قدْ صيرتني الأمو ... رُ إلَيْكَ، وَمَا كَانَ لي مَنْكَصُ
كساكمْ علاثةُ أثوابهُ ... وَوَرّثَكُمْ مَجْدَهُ الأحْوَصُ
وَكُلُّ أُنَاسٍ، وَإنْ أَفْحَلوا ... إذا عَايَنُوا فَحْلَكُمْ بَصْبَصُوا
وإنْ فحصَ النّاسُ عنْ سيدٍ ... فَسَيّدُكُمْ عَنْهُ لا يُفْحَصُ
فهلْ تُنكرُ الشّمسُ في ضوئها ... أوِ القَمَرُ البَاهِرُ المُبْرِصُ
فَهَبْ لي ذُنُوبي فَدَتْكَ النّفُو ... سُ ولا زلتَ تُنمي، ولا تُنقصُ

فقال: قد فعلتُ، ووالله لو قلتَ فيّ ما قلتَ في عامر ابن عمي لأغنيتك حياتَك، ولو قلتَ فيه ما قلته فيّ ما أذاقك بَرْد الحياة[1].

وممن وجد نفسه عند إحاطة الموت به تميمُ بن جميل؛ فإنه القائل بين يدي المعتصم وقد قدم السيف والنطع لقتله:

أرى الموتَ بين النَّطْعِ والسيفِ كامناً ... يُلاحظُني من حيثُ ما أتلفَّتُ
وأكبرُ ظنّي أنك اليوم قاتلي ... وأيُّ امرئٍ مما قضى اللهُ يُفلِتُ
وأيُّ امرئٍ يُدلي بعذرٍ وحُجة ... وسيفُ المنايا بين عينيه مُصلَتُ
يعزُّ على الأوس بن تغلبَ موقفٌ ... يُسلُّ عليّ السيف فيه وأسكتُ
وما حَزَني أني أموتُ وإنني ... لأعلمُ أن الموت شيءٌ مؤقّتُ

---

[1] الشعر والشعراء (ص: ٤٩)، ديوان الاعشى (١/٢٩)، الحماسة المغربية (٢/١٣٦١)، البصائر والذخائر (٦/١٣١).

ولكنَّ خَلفي صبيةً قد تركتُهم ... وأكبادُهم من حسرةٍ تَتفتّتُ
كأني أراهمْ حين أُنعى إليهمُ ... وقد خَمشوا تلك الوجوهَ وصوّتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بنعمةٍ ... أذودُ الردى عنهمْ وإن مِتُّ مُوِّتوا
فكم قائلٍ لا أبعد اللهُ دارَه ... وآخرَ جذلانٌ يُسرُّ ويَشمتُ

فعفا عنه المعتصم، وأحسن إليه، وقلده عملاً[1].

وكان عمرو بن بحر الجاحظ مائلاً إلى ابن الزيات، منحطاً في هواه، فلما نكبه المتوكل أُدخل الجاحظ على القاضي أحمد مقيداً، فقال له: والله ما أعلمك إلا متناسياً للنعمة كفوراً للصنيعة، معدداً للمساوئ، وما فتّني باستصلاحي لك، ولكن الأيام لا تُصلح منك لفساد طويتك، ورداءة جبلتك، وسوء اختيارك، وتكالب طباعك! فقال الجاحظ: خفض عليك أصلحك الله، فوالله لأن يكونَ لك الأمر علي خير من أن يكون لي عليك، ولأن أُسيءَ وتحسن أُحسن في الأُحدوثة من أن أُحسن فتسيء، ولأن تعفو عني في حال قدرتك عليّ أجمل بك من الانتقام مني. فعفا عنه"[2].

ويذكر أن يحيى بن خالد بلغه عن حُجْر بن سليمان الكاتب الفصيح الحراني أمور من المخالفة، فكان عليه لها مُغيظاً، فلما وجه الرشيد يحيى إلى حران ليقتل من

---

[1] العمدة في محاسن الشعر وآدابه (ص: ٦٣).
[2] إعتاب الكتاب (ص: ٣١).

خرج عنه فيها، ضاق بحُجر منزله، فكتب إلى يحيى: أما بعد، فإنك لما حللت بأرضنا، وقرُب مزارك منا، اعتلج بقلبي أمران؛ أما أحدهما فالاستتار منك وخفض الشخص في عسكرك؛ وأما الآخر فالإصحار لك والرضا بحكومتك، فاعتلى الرجاءُ لعفوك الخوفَ من بادرتك، وعلمت أني لم أُعجزك فيما مضى من سالف الأيام، ولأنت أعظم شأناً من الذي لم تَعدُ قدرتُه الحَيرة، إذ يقول له النابغة:

فإنّك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أنّ المتأى عنك واسعُ

فأنا أسألك مسألةً يُعظِّم الله عليها أجرَك، ويُجزِل عليها ذخرَك، وأسألك بحق نعم الله إلا بللتَ ريقي بعفوك، وفرجت الضيقة التي لزمتني بعطفك. فكتب إليه يحيى بالأمان له والعفو عنه[1].

ولما ولي يزيد بن مزيد الشيباني أرمينية، بعث إلى حُجر هذا، فأمر فشقت ثيابه، وقال: والله لأُزيلن لحمك وعصبك عن عظمك، لا والله ما طلبت ولاية أرمينية إلا لأَشفي نفسي منك! فقال: لا تعجل أيها الأمير؛ فإن تكن يدك عاليةً فيد الله أعلى، فانظر إلى من فوقك، ولا تنظر إلى من تحتك، فكل رب من العباد مربوبٌ لذي القوة المتين الذي ينتقم إذا شاء في عاجل!

أُعيذك بالله -أيها الأمير- أن تساعد غضبك فتندم، وخذ الفوز في الدين والدنيا بالعفو؛ فإن الله يقول: وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ

---

[1] إعتاب الكتاب (ص: ٨٤).

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

قال عوانة بن الحكم الكلبي والد عياض بن عوانة: شهدته يتكلم بهذا الكلام، وهو مبتل الريق، سهل الكلام، سالم من السقط، كأنما يقرأ في صحيفة، فقال يزيد: أستغفر الله، والله إنا لمربوبون للرب العظيم، وإنه ينبغي لنا إذا أطللنا على من دوننا أن نذكر من فوقنا، خلوا عنه وهاتوا له كسوة! يا حجر بن سليمان قد أعدناك إلى مرتبتك "[١].

فمن لنا في عصرنا من أمثال هؤلاء الذين يؤثر فيهم الأدب الجميل فيَنزِل عليهم كالماء البارد الذي يطفئ وهج الغضب الذي كان سينتهي بقتل المغضوب عليه.

ولا ريب أن الخطيب بحاجة إلى أن يكون عنده من هذا الأدب حظ؛ إما من محفوظه وإما من ابتداه خاطره الذي قد صقلته كثرة القراءة في كتب الأدب ومحاكاة أهله في كتاباتهم؛ فإن ذلك الرصيد قد ينفعه في المواقف المحرجة فيخرجه أدبه من مأزقه؛ فقد خَطَب قُتَيْبة بن مُسْلم على منبر خُرَاسان فسَقَط القضِيبُ من يده، فتفاءل له عدوّه بالشرّ واغتمّ صديقُه، فعَرَف ذلك قُتَيبة فقال: ليس الأمرُ على ما ظَنّ العدوّ وخاف الصديقُ، ولكنه كما قال الشاعر:

فألقتْ عَصَاها واستقرّ بها النَّوَى كما قَرّ عَيْناً بالإيابِ المُسافرُ[٢].

---

[١] إعتاب الكتاب (ص: ٨٤).

[٢] عيون الأخبار (٢/ ٢٨٣).

أهمية الشعر وعظم أثره

الشعر فن جميل يأسر النفس ويستولي على إعجابها، ويفرض تأثيره عليها بغير استئذان؛ فهو يطربها أحيانًا، ويشجيها أخرى، ويستحثها تارة، ويقيدها تارة، يأسو جراحها، وقد يكدر أفراحها، يرفع من شأنها أو يدنيه، ويقوي عمودها أو يوهيه.

والشعر قول والقائلون كثر؛ فقائل ينطق بالخير، وقائل ينطق بالشر.

وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الشِّعْرُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ حَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الكلام)[1].

غير أن حَسن الشعر منافعه كثيرة، وآثارهُ الحسنةُ على النفوس غزيرة.

قال عمر بن الخطابِ رضي الله عنه: الشعر يَسكن به الغيظ، وتُطفأ به النائرة، ويَتبلّغ القوم، ويعطى به السائل. وقال أيضاً: نِعم الهدية للرجل الشريف الأبيات يقدّمها بين يدي الحاجة؛ يستعطف بها الكريم ويَستنزل بها اللئيم.

وقال عبد الملك: تعلّموا الشعر؛ ففيه محاسن تُبتغى ومساوئ تتقى[2].

وقد قالوا في منزلة الشعر:" إنه قيد الكلام، وعقل الآداب، وسُور البلاغة، ومعدن البراعة، ومجال الجَنان، ومسرح البيان، وذريعة المتوسِّل، ووسيلة المتوصل، وذِمام الغريب، وحرمة الأديب، وعصمة الهارب، وعُدّة الراهب،

---

[1] رواه البخاري في الأدب المفرد، وهو صحيح.

[2] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (١/١٠٦).

ودوحة المتمثل، وروحة المتحمّل، وحاكم الإعراب، وشاهد الصواب "[١].

ولا ريب أن الشعر" معدن علم العرب، وسِفر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودَع أيامها، والسّور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النِّفار، والحجّة القاطعة عند الخصام، ومن لم يَقُم عندهم على شرفه وما يدّعيه لسلفه من المناقب الكريمة والفعال الحميدة بيت منه؛ شذّت مساعيه وإن كانت مشهورة، ودرست على مرور الأيّام وإن كانت جساما؛ ومن قيّدها بقوافي الشعر، وأوثقها بأوزانه، وأشهرها بالبيت النادر، والمثل السائر، والمعنى اللطيف، أخلدها على الدهر، وأخلصها من الجحد، ورفع عنها كيد العدوّ وغضّ عين الحسود "[٢].

إن" الأدب لم يزل على قديم الوقت محبوبا، وصاحبه على تباين الأحوال مقرَّباً مطلوبا، وكان من أعظم آداب العرب: الشعرُ، الذي هو ديوان بيانهم، وجامع إحسانهم ومقيِّد ذكر أيامهم وأنسابهم وحافظ أُصولهم وأحسابهم، يعطرون بأرَجه مجالس أُنسهم، ويعرفون به مزيّة يومهم على أمسهم "[٣].

ولولا الشعر الفصيح لما خلد ذكر بعض الأعلام، ولا عرف الناس البخلاء من الكرام، ولا السفلة من العظام؛ فالشعر هو الذي صير في جبين الزمان ذِكرهم

---

[١] زهر الآداب وثمر الألباب (٣/٦٨٥).

[٢] عيون الأخبار (٢/٢٠٠).

[٣] التذكرة الفخرية (ص: ١).

باقيا، وجعل في أفق العلا شأنهم ساميا.

" كما حُكي أن أبا دُلَفٍ العِجلي كان يساير أخاه فبصرت بهما امرأتان، فقالت إحداهما للأخرى: هذا أبو دلف الذي يقول فيه عليّ بن جَبَلَة الطوسيّ:

إنَّما الدنيا أبو دُلَفٍ ... بينَ بادِيه ومحتَضَرِهْ
فإذا ولَّى أبو دُلَفٍ ... ولَّتِ الدنيا على أثَرِهْ

فبكى أبو دلف، فقال أخوه: مم تبكي؟ قال: كوني لم أجازِ عليّاً على شعره، قال: أوَلَم تُعطه مائة ألف درهم؟ قال: بلى، ولكني والله نادم إذ لم أجعلها دنانير[1].

ولما تلا أبو تمام قصيدته الرائية في رثاء محمد بن حُميد، ومنها قوله:

كذا فليَجِلَّ الخَطْبُ وليفدحِ الأمرُ ... وليسَ لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ
تُوفيّت الآمال بعد محمدٍ ... وأصبحَ في شُغْلٍ عن السّفَر السّفْرُ
وما كان إلاّ مالَ مَنْ قَلَّ مالُهُ ... وذخراً لمن أمسى وليس له ذُخْرُ
تردى ثيابَ الموتِ حُمْراً فما أتى ... لها الليلُ إلاّ وَهْيَ من سُنْدُسٍ خُضْرُ
كأنَّ بني نبهان يوم وفاته ... نجومُ سماءٍ خَرَّ من بينها البَدْرُ

قال أبو دلف: وددت أنها فيَّ، فقال أبو تمام: بل يطيل الله بقاء الأمير وأفديه بنفسي، فقال: إنه لم يمت من قيل فيه هذا.

قال بعضهم: فانظر إلى هذه الكريمة التي ترغِّب في الذكر الجميل، فيتمنى لأجلها الحِمام، وهل ذلك إلا للسر الذي أودعه الله في بليغ الكلام؟[2].

---

[1] التذكرة الفخرية (ص: ٢).

[2] أنوار الربيع في أنواع البديع (ص: ٤٨٩).

ولا شك أن الشعر يفضل غيره من سائر الكلام بأمور كثيرة، منها:

طول بقائه على أفواه الرّواة، وامتدادُ الزمان الطويل به؛ وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض؛ وهذه خاصة له في كلّ لغة، وعند كلّ أمة؛ وطول مدة الشيء من أشرف فضائله.

ومما يفضل به غيره من الكلام: استفاضته في الناس وبُعد سيره في الآفاق؛ وليس شيء بأسير من الشعر الجيّد، وهو في ذلك نظير الأمثال.

وقد قيل: لا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي والأيام من مثل سائر، وشعر نادر[1].

ومما يفضل به غيره: أنه ليس يؤثّر في الأعراض والأنساب تأثيرَ الشعر في الحمد والذم شيءٌ من الكلام؛ فكم من شريف وَضع، وخامل دنيء رفع؛ وهذه فضيلة غير معروفة في الرسائل والخطب.

كان بنو حنظلة بنِ قريع بنِ عوف بنِ كعب يقال لهم بنو أنف الناقة يُسبَّون بهذا الاسم في الجاهلية، وسبب ذلك أن أباهم نحر جزورا وقسم اللحم، فجاء حنظلة وقد فرغ اللحم وبقي الرأس، وكان صبيا، فجعل يجرّه، فقيل له: ما هذا؟ فقال: أنف الناقة. فلقّب به، وكانوا يغضبون منه حتى قال فيهم الحطيئة:

سيري أمامُ فإنّ الأكثرين حصى ... والأكرمين إذا ما يُنسَبون أبا

قوم هم الأنف والاذناب غيرهم ... ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا

---

[1] ينظر: الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ١٣٧).

فعاد هذا الاسم فخرًا لهم وشرفًا فيهم.

وكان بنو نمير أشراف قيس وذوائبها حتى قال جرير فيهم:

فغضّ الطّرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

فما بقي نميريّ إلا طأطأ رأسه.

وقال حبيب:

فسوف يزيدكم ضعة هجائي كما وضع الهجاء بني نمير[1].

والخطيب إذا لم تكن له دراية بالشعر تذوقًا وكثرة قراءة وحفظًا لبعض الأبيات؛ فإن هذا قصور سيظهر أثره على خطابته؛ فقد تخلو خطبه من البيت أو الأبيات؛ لأنه لا يستحسنه أو لا يحفظ منه ولا يعلمه، أما الخطيب الذي له قدم صدق في ميدانه فإنه يزين به خطبه ويقوي به حجته، وربما وصل بالبيت منه أو الأبيات إلى التأثير في السامعين أكثر من التأثير بسائر نثر خطبته، خاصة إذا كان الشعر جيداً ووافق مضمون الخطبة وكان الإلقاء له حسنًا.

وقد قال بعض السلف: "من لم يتذوق الشعر فلا تعدوه عربيًا"، فكيف بخطيب عربي يخطب بين العرب بلسان فصيح!

---

[1] العقد الفريد (٦/ ١٧٧).

قال الشعراء عن الشعر

لقد خلد الشعراء حديثًا شعريًا عن الشعر، بينوا فيه قدر الشعر ومنطلقه وأثره وصعوبته:

ومن أولئك الشعراء: حسان الإسلام، شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي كان حُب الإسلام ورسولِه في شعره مَعينَه الرقراق، وجبريلُ الأمين هو مُعينه في هجو أهل الكفر والشقاق.

يقول أبو الوليد حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وإنما الشِّعْرُ لُبُّ المرْءِ يَعرِضُهُ ... على المجالس إن كَيْساً وإن حُمُقا

وإنّ أشعرَ بيتٍ أنتَ قائلُهُ ... بَيْتٌ يُقالُ إذا أنشدتَهُ، صَدَقا

ففي هذين البيتين يكشف حسان عن حقيقتين في الشعر:

الحقيقة الأولى: أن الشعر برهان العقل، فما حسن منه فهو دليل الحصافة والرجحان، وما ساء منه فهو أمارة الحمق والضعف.

وقد ألم بهذا المعنى البارقيُّ في قوله:

وإنما الشِّعْرُ لُبُّ المَرْءِ يعرِضُهُ ... والقولُ مثلُ مواقِعِ النَّبْلِ

منها المُقصِّرُ عن رَمِيّتِه ... ونوافِذٌ يَذْهَبْنَ بالخَصْلِ

وكان يقال: لا يزال الرجل في فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يضع كتاباً؛ لأن شعره تَرجُمان علمه، وتأليفه عنوان عقله.

وقال الجاحظ: من صنع شعراً أو وضع كتاباً فقد استُهدف؛ فإن أحسن فقد

استعطف، وإن أساء فقد اُستقذف.

قال الشاعر:

لا تَعرضـنْ للشـعر ما لم يكن عـلـمُـك في أبـحـره جِسرا
فـلـن يـزال المـرءُ في فسـحـةٍ مـن عـقـلـه مـا لم يـقـل شِـعـرا

الحقيقة الثانية: أن أحسن الشعر أصدقه، فمتى ما وافق الحقيقة، وأصاب كبدها، وفلَّ المحزَّ وأصاب المفصل؛ فهذا أشعر الشعر. فخير "الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل، وأدبٍ يجب به الفضل، وموعظةٍ تُروِّض جِماح الهوى وتبعث على التقوى، وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال، وتفصِل بين المحمود والمذموم من الخصال، وقد يُنحى بها نحو الصدق في مدح الرجال، كما قيل: كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه"[1].

وقول (أعذب الشعر أصدقه) هو أحد ثلاثة أقوال في هذه المسألة، وثانيها: أعذب الشعر أكذبه، وثالثها: أعذب الشعر أقصده، وهي مسألةٌ فيها خلاف بين الأدباء.

غير أن مذهب أكثر الفحول ترجيح الصّدق في أشعارهم على الكذب.

"روي عن الحرورية امرأة عِمران بنِ حِطّان قاضي الصُّفريّة من الخوارج أنها قالت له يومًا: أنت أعطيت الله تعالى عهداً ألّا تكذب في شعرك، فكيف قلت:

---

[1] أسرار البلاغة للجرجاني (ص: ٢٠٠).

فـهـنـاك مجـزأة بـن ثـو ر كـان أشـجـع مـن أسـامـهْ؟!

فقال: يا هذه، إن هذا الرجل فتح مدينةً وحده، وما سمعت بأسد فتح مدينة قط، وهذا حسان يقول:

وإنما الشِّـعْرُ لُـبُّ المرْءِ يَعرِضُـهُ على المجالس إن كَيْسـاً وإن حُمُقا

وإنّ أشـعـرَ بـيـتٍ أنـتَ قـائـلـهُ بَيْتٌ يُقالُ إذا أنشـدتَهُ، صَـدَقا[1].

ومن الشعراء الذين كتبوا عن الشعر: أبو مليكة جَرْوَل بنُ أوسِ بنِ مالِك العبسي الملقبُ بالحطيئة، يقول:

الشـعْرُ صَـعْـبٌ وَطَوِيـلٌ سُـلَّمُهْ إذا ارْتَـقَـى فـيـه الَّـذي لاَ يَـعْـلَـمُـهْ

زَلَّـتْ بِـهِ إِلَى الحَضِـيـضِ قَـدَمُـهْ وَالشِّعْرُ لاَ يُطيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهْ

يُـرِيـدُ أَنْ يُـعْـرِبَـهُ فَـيُـعْـجِـمُـهْ وِلَمْ يَزَلْ مِنْ حَيْثُ يـأتي يَخْرِمُـهْ[2].

يتحدث الحطيئة في هذه الأبيات عن صناعة الشعر الجيد، فيخبر بأنه صعب المرتقى، ومن تسلق سلمه من غير إجادة فَضح نفسه.

والأمر كما قال أبو مليكة؛ فالشعر الحسن صناعة ليست سهلة؛ لأنه يحتاج إلى سعة لغوية، ومعرفة بلاغية، تُعينان على سبك الألفاظ، وتزويق المعاني، مع ذكاء يحمل- بعد ذلك- الشاعر على حسن اختيار المواقع.

قال ابن حَاجِبٍ:

---

[1] صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (٢/٢١٢).

[2] مجمع الأمثال (٢/٢٢٣).

وَمَا الشِّعْرُ إِلَّا مَرْكَبٌ جِدُّ جَامِحٍ إِذَا لَمْ يَرُضْهُ بِالتَّفَكُّرِ رَاكِبُهْ[١].

يقول ابن رشيق:" وإنما سمي الشاعر شاعراً؛ لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليدُ معنى ولا اختراعُه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادةٌ فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقصٌ مما أطاله سواه من الألفاظ، أو صرفُ معنى إلى وجه عن وجه آخر؛ كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير "[٢].

" وقيل: عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر، ويقال: إن الشعر كالبحر أهونُ ما يكون على الجاهل، أهولُ ما يكون على العالم، وأتعبُ أصحابِه قلباً مَن عرفه حق معرفته "[٣].

ولما كان الشعر الجيد صعب المرتقى فقد حصل عند الذين يعرفون ذلك الشعرَ أمران:

الأول: أن الشعراء المحسنين لا يواتيهم ذلك في كل حين، بل قد يتأبى عليهم في بعض الأحوال.

يذكر أن الْمُنْذر بنَ مَاءِ السَّمَاء كان قد جعل لنَفسِهِ يَوْم بؤس فِي كل سنة فَكَانَ يركب فِيهِ فَيقْتل كل من لقِيه، فَاسْتَقْبلهُ عبيدُ بن الأبرص مرّة فِيهِ فَقَالَ لَهُ: مَا ترى يَا عَبيد؟ فَقَالَ: (المنايا على الحوايا) فَذَهَبت مثلاً، فَقَالَ لَهُ: أنشدنا من

---

[١] الدر الفريد وبيت القصيد (١/ ٣٠٠).

[٢] العمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/ ١١٦).

[٣] المصدر السابق (١/ ١١٧).

قريضك فَقَالَ: (حَال الجريض دون القريض)[١].

والجريض: الغصة عند الموت. فخوف الموقف حبس جَنانه ولسانه عن قول الشعر.

وقال ابن عبد ربه: "وقد يمتنع الشعر على قائله، ولا يَسلَس حتى يبعثه خاطرٌ أو صوت حمامة ".

وقال الفرزدق: أنا أشعر الناس عند الناس، وقد يأتي عليّ الحين وقلعُ ضرسٍ عندي أهون من قول بيت شعر".

قال راجز:

إنما الشعر بناءٌ يبتنيه المبتنونا
فإذا ما نسّقوه كان غثًا أو سمينا
ربما واتاك حيناً ثم يستصعب حينا[٢].

وكان إدريس بنُ سليمان بنِ أبي حفصة ينشد الشعرَ الجيّد لنفسه ثم يقول: قول الشِّعر أشدّ من قضم الحجارة على من يعلمه! وهو القائل:

وأنفي الشعرَ لو يلقاه غيري من الشُّعراء ضنّ بما نفيتُ[٣].

الثاني: أنه امتنع عن قوله أدباء كبار؛ لأن حسَنه لم يطاوعهم، فامتنعوا عن قول رديئه.

---

[١] جمهرة الأمثال (١/ ٣٥٩).

[٢] العقد الفريد (٦/ ١٧٥).

[٣] المصون في الأدب (ص: ١٣).

قيل للمفضل الضبي: لم لا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به؟! قال: علمي به هو الذي يمنعني من قوله، وأنشد:

وقد يقرض الشعرَ البكيُّ لسانُه ... وتُعيي القوافي المرءَ وهو لبيبُ

وقال الأصمعي على تقدمه في الرواية وتمييزه الشعر:

أبى الشعر إلا أن يفيء رديُّه ... عليّ ويأبى منه ما كان محكما

فيا ليتني إذ لم أجد حوك وشيه ... ولم أكُ من فرسانه كنت مفحما[1].

فما ذكرناه يبين قدر الشعر وأنه ليس بالأمر اليسير. فعلى الخطيب أن يدرك هذا. وقد سمعت تساهلاً من بعض الخطباء الذين يتسلقون هذا البناء الشامخ بذكر نظم منهم عدوه شعراً، وقالوا على أعواد المنابر: وقلنا في هذا المعنى كذا وكذا. وحينما يسمع المرء ذلك الكلام الذي حسبوه شعراً يعجب من تلك الجرأة على هيبة الشعر! فإن ما قالوه مختل الوزن في كل بيت، كَدِر المعنى، تتبرأ بعض ألفاظه من بعض.

أما لو كان متسق الوزن جيد المعنى فهذا يغفر التقصير عن بلوغ رتبة الإجادة في الشعر؛ فإن جو إعداد الخطبة ليس الجوَّ الشاعريَ الذي يجده الشاعر عند بناء قصيدة؛ فالخيال عند إنشاء القصائد واسع، والشعور متدفق وهذه العوامل مظنة لحسن النظم.

والخطيب الشاعر قد يحتاج أن ينظم بيتًا أو أبياتًا يقرِّب بها بعض الحقائق في

---

[1] العمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/١١٧).

خطبته، ولكنه قد لا يبلغ بها مبلغ الحسن، غير أن صلاح الوزن والإلمام ببعض جمال الشعر يشفع له.

قال الشعراء عن الخطباء

الخطيب إذا كان محسنًا في خطبته بأن أثر في الناس بوعظه وتذكيره، وتنشيطه لهم إلى المكارم وتحفيزه، أو نال إعجابهم بجمال أسلوبه وجودة إلقائه وسلامة عربيته، وحسن اختيار موضوعاته، وكان وقتُ خطبته موافقًا لا طويلاً مملاً ولا قصيراً مخلاً؛ بل يناسب الحديث والسامعين؛ فيكون حاله كما قال بعضهم: "ما أرى قليلاً فأشرحه، ولا كثيراً فأختصره"[(١)]؛ فإن من كان هذا حاله من الخطباء فسيحظى بمدحهم وثنائهم، وقد يقول فيه شعراؤهم أبياتًا يخلدون بها إحسانه:

قال بعضهم يمدح خطيبًا:

فإذا تكلّم خلته متكلّمًا ... بجميع عدّة ألسن الخطباءِ

فكأن آدم كان علّمه الّذى ... قد كان عُلِّمه من الأسماءِ[(٢)].

فيقول هذا الشاعر: إن هذا الخطيب فصيح اللسان فسيح البيان؛ فإنه حينما يتحدث تظنه يتحدث بجميع ما في ألسنة الخطباء من الجودة، وكأن آدم عليه السلام قد أودع في قلبه ما علمه ربه من الأسماء، في قوله تعالى: عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وقال آخر يمدح خطيبًا:

رَكُوبُ المَنَابِرِ وثَّابُهَا ... مُعنٌّ بخُطبَتِهِ مُجهِرُ

---

(١) البديع في نقد الشعر (ص: ١٨٢).

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب (١/ ١٤٧).

تـثـوب إلَـيْـهِ هـوَادِي الـكَـلا مِ إِذَا ضَـلَّ خُـطـبَـتَـهُ المِـهْـذَرُ[١].

يقول: إن هذا الخطيب معروف بالجهارة وجودة الخطبة، فتعن له الخطبة فيخطبها مقتضبًا لها، وهو غزير المادة، حتى إن أوائل الكلام تسوق إليه الكلام الوافر فيخطب في الوقت الذي يذهب فيه كلام المكثار.

وقال آخر يمدح قومًا بالخطابة:

خُـطَـبـاء حـين يـقـومُ قـائـلُـهـمْ بيضُ الوجوهِ مَصَـاقِعٌ لُسْـنُ[٢].

وقال آخر يمدح خطيبًا باللوذعية، [واللوذعي: الحديد الفؤاد الفصيح اللسِن]:

هو الشـجـاعُ والخطيـب اللوذعيْ والفارسُ الحازم والشـهم الأبيْ[٣].

إن الإطالة في الخطابة أو التقصير فيها قد يكون كل منهما ممدوحًا أو مذمومًا؛ فيُمدح كلٌّ من الإطناب والإيجاز إذا صادفا موضعهما، فإن خالفاه ذُمّا.

قال بعضهم: "إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيرا، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عِيا"[٤].

وقد مدحت العرب التطويل والتقصير في موضعيهما، فقالوا في مدح قوم خطباء:

يرمون بـالخطـب الطِوال، وتـارةً يـرومـون مثـلَ تـلاحـظ الـرقـبـاء.

---

[١] البيان والتبيين (١/ ١٢٢).

[٢] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (١/ ١٧٥).

[٣] الفن ومذاهبه في النثر العربي (ص: ٣٧).

[٤] أمالي القالي (١/ ٢٢٢).

"فمدح كما ترى الإطالة في موضعها، والحذف في موضعه"[١].

"أي: يخطبون تارة خطبًا طوالاً، إذا كانت حال المخاطبين تقتضي الإطالة، ويوجزون خطبهم تارة أخرى إيجازاً يشبه وحي الملاحظ"[٢].

وقال شاعر يمدح خطيبًا بحسن اختيار المواضع لإطنابه وإيجازه:

إذا ما ابتدى خاطبًا لم يُقَلْ ... له أطلِ القولَ أو قصِّرِ

طبيبٌ بداء فنون الكلا ... م لم يعيَ يومًا ولم يَهذِرِ

فإن هو أطنبَ في خطبة ... قضى للمطيل على المُقصِرِ

وإن هو أوجز في خطبة ... قضى للمقلِّ على المكثرِ[٣].

وقال آخر في مدح خطيب بالكفاية في طول خطابه وقصره:

يكفي قليلُ كلامه وكثيره ... ثبتٌ إذا طال النّضال مصيبُ[٤].

وقال آخر في مدح المأمون في خطبة خطبها فأثرت في الناس:

رماهم بقولٍ أنصتوا عجبًا له ... وفي دونه للسامعين عجيبُ

ولما وعتْ آذانُهم ما أتى به ... أنابتْ ورقّت عند ذاك قلوبُ

فأبكى عيونَ الناسِ أبلغُ واعظ ... أغرُّ بطاحيٌّ النجارِ نجيبُ

---

[١] البيان والتبيين (١/ ١٤٤).

[٢] البلاغة العربية (٢/ ٩).

[٣] الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ١٩٢).

[٤] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (١/ ٨٢).

مهيبٌ عليه للوقار سكينةٌ جريءُ جنانٍ لا أكعُّ هيوبُ
ولا واجبٌ فوق المنابر قلبُه إذا ما اعترى قلبَ النجيب وجيبُ
إذا ما علا المأمونُ أعوادَ منبر فليس له في العالمين ضريبُ
تصدع عنه الناس وهو حديثُهم تحدّث عنه نازح وقريبُ[1].

أما إذا كان الخطيب مسيئًا في خطبته؛ بأن فرغت ألفاظ كلامه من الحسن والجودة، ومعانيه من النور والهداية، وتقلب بين العِي والحصر، والهذرمة والهذر، ولم يكن بين كلامه المتقدم والمتأخر نسب وصلة، ولم يصر له من العربية إلا أوائل الكلام وأواسطه، وأما أواخره فقد أسلمها للحن الكثير جليه وخفيه؛ فإن هذا الخطيب لن يسلم من ذم السامعين وهجوهم، إن علنًا وإن سراً، وربما رشقته سهام القوافي بما يعرِّف الناس عيوبَ خطبته، وتصدَّره قبل تأهله، وتشبَّعه بما لم يعط، وقيامَه مقامًا ليس له بأهل:

قال شاعر- يذم خطيبًا بالعِي، وأنه لعيِّه يتشاغل بكثرة الالتفات، وتتابع النفس والتنحنح، ومسح ذقنه وفتل أصابعه-:

مليءٌ بِبُهْرٍ والتفاتٍ وسَعْلَةٍ ومَسْحَةِ عُثْنُونٍ وفَتْلِ الأصابعِ[2].

وقال شاعر آخر يذم خطيبًا، حتى إنه ضجر منه المنبر الذي علاه لولا أنه صبر:

لقد صبرتْ للذلِّ أَعْوَادُ مِنْبَرٍ تقوم عَلَيْهَا فِي يَديك قضيبُ
بَكَى الْمِنْبَرُ الشرقيُّ لما علوتَه وكادت مسامير الْحَدِيد تذوبُ

---

[1] التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا (ص: ٢٧٤).
[2] العقد الفريد (٢/ ٨٨).

بـخِـفَّـةِ أحـلامٍ وقـلَّـةِ نـائـلِ وفيك لمن عاب المَزونَ مُعيب[١].

وقال شاعر آخر يذم خطباء بالتطويل الممل، وسوء الخطاب والرأي ورداءتها:

يرمون بالخطب الطوال وكلُّها خطراتُ أرعنَ أو سبابُ أفيكِ

من كل مرتبكِ المقالة رأيُه زيفانُ بين مسفَّه وربيكِ[٢].

والأرعن: الأهوج في منطقه، والأفيك: الضعيف العقل، وزيفان: مغشوش وباطل.

وقال رجل يصف رجلاً بالعي، وكان أبوه خطيبًا وخاله، وأما هو فلم يكن كذلك:

جمعتَ صنوف العي من كل وجهة وكنت مليئاً بالبلاغة من كثبْ

أبوك معمٌّ في الكلام ومُخول وخالك وثّاب الجراثيم في الخُطبْ[٣].

والجراثيم: جمع جرثومة وهي الأصل.

---

[١] شرح نقائض جرير والفرزدق (٢/ ٥٤٠).

[٢] في الأدب الحديث (٢/ ٤٢٤).

[٣] البيان والتبيين (١/ ٢٩).

أبواب نحوية وصرفية يَكثر فيها لحنُ بعض الخطباء

كم يطرب محب العربية حينما يحضر خطبة جمعة فيسمع خطيبًا يعطي العربية حقها ومستحقها؛ من نطق سليم، وتعبير رشيق، وأسلوب أنيق، حتى ولو كان الموضوع ليس فيه جِدّة ولا تميز.

لكن يكفي الحاضرَ المحب أنه آب من الجامع وأذنه سالمة من قصف اللحن، وصدُره منشرح؛ لأنه لم يسمع صيالة على حرمة العربية.

وقد يحضر عند خطيب آخر فيلحن قليلاً في بعض الأبواب النحوية؛ لذهاب ذهنه في المعاني أكثر من المباني، أو لسرعته في الحديث، أو لكثرة الفواصل بين الأشياء المتعلق بعضها ببعض.

فهذا يغمر غلطه القليل في صوابه الكثير "وكفى المرءَ نبلاً أن تعد معايبه".

ولكن هناك خطباء يمل السامع من عد أخطائهم النحوية والصرفية؛ لكثرتها، وظهورها الفاحش على لسان الخطيب الذي قد يكررها أحيانًا بلحنها في الموضع الواحد!!

وقد سمعت بعض الخطباء ووجدت بعض الأبواب النحوية والصرفية يكثر فيها غلطهم، فأحببت التنبيه على ذلك؛ لتلافي هذه الأغلاط:

أولاً: الأبواب النحوية:

١-باب العدد:

باب العدد من الأبواب المهمة التي على لخطيب استيعابها استيعابًا جيداً، ومن

لم يكن كذلك التبس عليه الصحيح بالفاسد فيه. فقد لا يدري ما الصواب في النطق والكتابة للأعداد التي من ثلاثة إلى عشرة، ومن أحد عشر إلى تسعة عشر، وألفاظ العقود، وكيفية التذكير فيها والتأنيث، ومتى تحذف التاء المربوطة في عشرة ومتى تبقى، ومتى تسكن شينها ومتى تحرك بالفتح.

فمثلاً بعض الخطباء يقول: هناك ثلاثة قضايا، وثلاث أمور، والفائدة الحادية عشر، وكان عددهم سبعة عشرة مسلمًا، وثلاثة وثلاثين امرأة!

والصواب في هذا كله هكذا: هناك ثلاث قضايا، وثلاثة أمور، والفائدة الحادية عشْرة، وكان عددهم سبعة عشَر مسلمًا، وثلاثًا وثلاثين امرأة.

أما إذا جاء رقم يراد قراءته بالألفاظ فهو كارثة على بعض الخطباء، ففي التواريخ لا يفرق بين ما تقدمه أو تأخر عنه لفظ عام أو لفظ سنة. فقد يقرأ عام(٦٧هـ) يقول: وفي عام سبع وستين، ولو كان سنة (٦٧) قد يقرأ: وفي سنة سبعة وستين، وقد يقرأ وكان عمره خمسة وستين سنة، أو خمسًا وستين عامًا.

والصواب على الترتيب: عام سبعة وستين، وسنة سبع وستين، وكان عمره خمسًا وستين سنة، أو خمسة وستين عامًا.

وأما في أرقام الإحصائيات فالخَطب أعظم؛ ففي هذا الرقم مثلاً: (١٦٥٤٥٣٤)، إذا ورد في سياق: "وقتل في تلك الحرب: (١٦٥٤٥٣٤) امرأة"، فبعض الخطباء قد يتلعثم في قراءته، وبعضهم قد يخطئ فيقول: وقتل في تلك الحرب مليون وستمائة ألف وخمسمائة وخمسة وأربعين ألف وخمسمائة

وأربعة وثلاثين امرأة. والصواب هكذا: وقتل في تلك الحرب مليونٌ وستُمائةِ ألفٍ وخمسُمائةٍ وخمسٌ وأربعون ألفًا وخمسُمائة وأربعٌ وثلاثون امرأة.

٢- باب كان وأخواتها:

ويحصل الخطأ في هذا الباب كثيراً حينما يتأخر اسم كان ويتقدم خبرها الآتي في جارٍّ ومجرور أو ظرف، فمثلاً قد يقول بعض الخطباء: "وصار هناك أموراً كثيرةً لهذا". "وقد كان في ذلك المكان عدداً كبيراً من المواطنين".

والصواب: وصار هناك أمورٌ كثيرةٌ لهذا. وقد كان في ذلك المكان عددٌ كبيرٌ من المواطنين.

ونبهني بعض الفضلاء بأن هناك لغة وردت عن العرب يصح عندها جعل شبه الجملة اسمًا لكان وأخواتها، وهذا صحيح، ولكننا نمشي مع اللغة الشائعة.

فإن نطق الخطيب بهذه اللغة غير الشائعة وهو من أهل النحو ويعرف ما يقول؛ فإنه يغتفر له ما لا يغتفر للجاهل بها.

٣-باب إنَّ وأخواتها:

وهذا الباب كسابقه في سبب الخطأ فيه؛ وهو هنا تأخر الاسم بفاصل بينه وبين الحرف المشبه بالفعل، فمثلاً قد يقول بعض الخطباء: "ألا وإن من علامات حسن الخاتمة النطقُ بالشهادة عند الموت".

والصواب: ألا وإن من علامات حسن الخاتمة النطقَ بالشهادة عند الموت.

٣-باب خبر المصادر العاملة عمل فعلها.

كقول بعض الخطباء: "وكون هذا الأمر محبوبٌ لله".

والصواب: وكون هذا الأمر محبوبًا لله.

٤-باب التوكيد الذي على صورة الحال وهو لفظ "كافة".

كقول بعض الخطباء: "وقال به كافة العلماء، وهو مذهب الكافة من الفقهاء".

والصواب: وقال به العلماء كافةً. ومذهب الفقهاء كافة. وهذا هو الاستعمال الذي جاء به القرآن الكريم في جميع المواضع التي ذكرت فيها هذه الكلمة. قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

قال النووي: "قوله: (ما خصنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء لم يعم به الناس كافة إلا ما كان في قراب سيفي) هكذا تستعمل كافة حالاً، وأما ما يقع في كثير من كتب المصنفين من استعمالها مضافة وبالتعريف كقولهم: هذا قول كافة العلماء، ومذهب الكافة؛ فهو خطأ معدود في لحن العوام وتحريفهم"[١].

٥-باب المفعول الذي لم يسم فاعله:

والخطأ يحصل في حركة المفعول الثاني للفعل المبني للمجهول (كما يسميه بعضهم)، مثل قول بعض الخطباء: "ويسمّى هذا طفلُ الأنابيب" . والصواب: ويسمّى هذا طفلَ الأنابيب.

---

[١] شرح النووي على مسلم (١٣/ ١٤٢).

٦—باب جواب الطلب:

فمن من المعلوم أن جواب الطلب مجزوم، لكن بعض الخطباء لا يجزمه. كقول بعضهم: "اذهبوا إلى هناك تجدون الأمر كما قلنا".

والصواب: اذهبوا إلى هناك تجدوا الأمر كما قلنا.

٧-باب ال التعريف:

فهناك كلمات موغلة في الإبهام والتنكير ولن يفيدها دخول ال تعريفًا؛ مثل كلمتي: غير، وبعض. فبعض الخطباء يضيف إليهما ال التعريف فيقول: "هذا من الأمور الغير صحيحة"، "وقال البعض: إن فلانًا قال كذا".

والصواب: هذا من الأمور غير الصحيحة، وقال بعضهم أو بعض الناس: إن فلانًا قال كذا.

٨- باب الاختصاص:

وهذا الباب وإن كان قليل الدوران في الكلام، غير أن الخطيب قد يحتاج إلى نطق أمثلة من هذا الباب.

ومورد هذا الباب في الحديث عن فخر، أو تواضع، أو زيادة بيان.

كقول بعض الخطباء: "نحن اليمنيون أصل العرب".

والصواب: نحن اليمنيين أصل العرب.

قال البردّوني:

نحن اليمانين يا طه تطير بنا إلى روابي العلا أرواح أنصارِ

٩-باب النعت:

النعت الحقيقي يتبع المنعوت في رفعه ونصبه وجره، وفي تذكيره وتأنيثه، وفي تعريفه وتنكيره، وحينما يكون النعت رديف المنعوت فاللحن يقل، لكن اللحن يكثر عند بعض الخطباء عندما تكون هناك فواصل، فمثلاً: حينما يقول: "ثم تفاءل تفاؤلاً يخترق حُجبَ الألم الكثيفةِ الواقفةِ في طريق الراحة"، والصواب: الكثيفةَ الواقفةَ "بالنصب؛ لأن المنعوت كلمة" حجب "وهو مفعول به.

١٠-باب وصف جمع المؤنث السالم" أو "ما جمع بألف وتاء مزيدتين":

جمع المؤنث السالم ينصب بالكسرة، وحينما يوصف هذا الجمع قد يلحن فيه بعض الخطباء؛ فمثلاً يقول: "فالمرض يستخرج عبودياتٍ كثيرةٍ من العبد"، فيجر كثيرة، والصواب نصبها فيقال: كثيرةً. فالكسرة فيما جمع بألف وتاء مزيدتين-في حالة النصب- ليست أصلية بل نائبة عن الفتحة، ونعتها لابد أن يكون على الأصل وهو النصب بالفتحة.

ثانيًا: أبواب الصرف:

١-باب مضارع الثلاثي والرباعي:

من المقرر لدى الصرفيين أن مضارع الفعل الثلاثي يفتح أوله، ومضارع الرباعي يضم.

لكن بعض الخطباء يعكس القضية؛ فيقول في الفعل يُريد: يَريد، والفعل يُعطي يَعطي. والفعل يَسيغ يُسيغ، والفعل يَهدي يُهدي.

وكم قد سمعنا من الخطباء عندما يقرأون الحديث القدسي الذي فيه: (...فاستطعموني أُطْعِمْكم)[1]، فمن الخطباء من يخطئ فيه فيقول: (أَطعمكم) فيفتح الهمزة فيغلط صرفا، ومنهم من يقرأ: (أطعمُكُم) فيضم الميم فيغلط نحوا!

٢-باب جمع القلة والكثرة:

ليس عند بعض الخطباء فرق بين القلة والكثرة؛ لعدم علمه بجموع كل منهما.

والخَطب في هذا يسير، لكن حري بالخطيب أن يسلك طريق الإحسان دائمًا ما أمكنه.

فمثلاً يقول بعض الخطباء: "ومدة ذلك ثلاثة شهور".

وهذا يخالف القاعدة الصرفية التي تبين أن ما كان من ثلاثة إلى عشرة فهو جمع قلة، وما زاد فهو جمع كثرة.

ف "شهور" على وزن فعول وهو جمع كثرة. والثلاثة يناسبها جمع القلة، وهو أُفعل، كما قال ابن مالك في الألفية:

أَفْعِلَةٌ أفعُلُ ثم فِعْلَهْ ثُمَّتَ أفعالٌ جموعُ قِلَهْ

فالصواب أن يقول: ثلاثة أشهر. وبهذا جاء القرآن الكريم في جميع المواضع: قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾[البقرة: ١٩٧]؛ لأنها شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة. وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ

---

[1] رواه مسلم.

أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، وقال:

﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]، وقال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ [التوبة: ٥]، وقال: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤].

ولما تحدث تعالى عن جميع شهور السنة الاثني عشر جمعها جمع كثرة فقال: شهور. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: ٣٦].

٣-باب اسم الفاعل واسم المفعول:

فيقول بعض الخطباء: "مصالح متبادِلة". والصواب: متبادَلة. ويقول: المتوفي والمتوفِّين. والصواب: المتوفَى، والمتوفَون.

٤-باب الفعل المبني للمجهول:

هناك أفعال وردت في لغتنا العربية مبنية للمجهول فينطقها بعض الخطباء مبنية للمعلوم.

-فيقول: اضطَر-بفتح الطاء-، والصواب: اضطُر. بضم الطاء.

-ويقول: احتَضَر الرجل-بفتح التاء والضاد، يعني: حضره الموت. والصواب: احتُضِر. بضم التاء وكسر الضاد.

-ويقول: استَشهَد فلان- بفتح التاء والهاء- يعني: في المعركة-والصواب: استُشهِد. بضم التاء وكسر الهاء.

ويقول: تَوفَّى فلان-بفتح التاء والفاء-، يعني: حضرته الوفاة، فهو محتضِر- بكسر الضاد-. والصواب: تُوفِّيَ-بضم التاء وكسر الفاء. فهو محتضَر.

٥- باب اسم المكان:

ويحصل الخطأ في عين اسم المكان. فيقول بعض الخطباء: مركِز-بكسر الكاف- . والصواب: مركَز. بفتح الكاف.

أما بعد فأقول: هذه التنبيهات أقصد بها الخطباء الذين لهم حظ وافر في النحو والصرف، ولكن قد يجانبون الصواب في هذه الأبواب لأسباب.

فألفت انتباههم إليها حتى يبتعدوا عن الأخطاء فيها.

أما الخطباء الجاهلون بعلم العربية فأنصحهم بترك المنابر حتى يتعلموا علم العربية، فإذا ثقفوها عادوا إلى ارتقائها عوداً حميداً، وإلا فبقاؤهم عليها بلاء عليهم وعلى الناس.

عناية الخطيب بالجانب البلاغي في خطبته

هل هناك خطبة يجب الحضور إليها، ويحرم العبث أثناء سماعها غير خطبة الجمعة؟

هذه الخطبة التي هدف حضورها-لمن وجبت عليه- ووجوب الإنصات فيها هو وعي ما يقال فيها للانتفاع به بعد الانصراف منها.

فخطبة بهذه المنزلة السامية تحتم على الخطيب أن يُعنى بها عناية كبيرة؛ حتى ينفع نفسه وسامعيه، وما شرعها الله أسبوعيًا وجعلها بهذا الحكم الملزم إلا لتحقيق هذه الغاية العظيمة.

ألا وإن من وجوه العناية بخطبة الجمعة على الخطيب: الاعتناءَ بالجانب البلاغي فيها؛ فإن ذلك هو جمالها وزينتها، وسبب بقاء صداها في النفوس والألسنة، وأقرب طريق إلى التأثير بها بين الناس.

فروعة التعبير يجعل الخطيب يعيش بروحه ومشاعره في خطبته ويظهر ذلك على نبرات صوته وملامح وجهه، وتلك صورة تؤثر تأثيراً إيجابيًا في الجمهور.

كما أن السامعين حينما يسمعون حسن الخطاب تذهب أذهانهم معه، فيصيرون منشغلين به لا منشغلين عنه، مع عظم اللذة التي قد وجدوها فيما سمعوا مما يجعلهم يبقون متعطشين لآتي الكلام من غير ملل.

وهذا يهيئ في المستمعين مجال القَبول لموضوع الخطبة؛ فإن كانت من الرقائق رقّتْ لها قلوبهم وربما دمعت عيونهم، وإن كانت في الحث على أوامر يعملونها

أو نواهٍ يجتنبونها؛ فعلوا ما طُلب منهم.

فيا حسن تلك الخطبة التي خرج مستمعوها ومازالت كلماتها ترن في آذانهم، وصداها يتجلجل في نفوسهم، وأثرها صار واقعًا ملموسًا في أعمال الناس وأقوالهم.

ومن هنا كان على الخطيب أن يتفنن في تعبيره البلاغي، وأسلوبه اللغوي، وتصويره الإنشائي.

ويمكن أن نشير إلى بعض الوجوه البلاغية التي ينبغي على الخطيب أن يوظفها في خطبته:

أولاً: العناية بحسن الابتداء، أو ما يسميه بعضهم براعة الاستهلال:

لأن الاعتناء بمدخل الخطبة من أسباب كسب الجمهور، فمتى ما حسن أدخل المتكلم مستمعيه معه إلى خطبته محبين متشوقين، وإن ساء تعبيره أو عجز عن الوصول إلى الإحسان فيه وقفوا ودخل موضوع خطبته وحده!

فحسن الافتتاح ينشِّط النَّفْس، ويُهَيِّئُ الأذهان إلى ما سَيُلقَى إليها.

ومن المعينات على الإحسان في الابتداء: استخدام بعض الأساليب البلاغية، ومنها الاستفهام المجازي الذي له أغراض كثيرة، منها: غرض التشويق.

فإذا أردت أيها الخطيب –مثلاً– أن تتحدث عن أسباب دخول الجنة فيمكن أن تقول: "هل تريدون أن تدخلوا داراً تحيون فيها ولا تموتون، وتسعدون ولا تشقون، وتصحِّون فيها ولا تسقمون، وتنعمون فيها ولا تبأسون، تتزوجون

فيها بلا مهور، وتُعطون فيها أحسن القصور، إذن فاسمعوا مني اليوم أسبابًا تصلون بها إلى تلك الدار الأثيرة، وتظفرون بتلك الغنائم الوفيرة".

ثانيًا: العناية بحسن الختام:

فكما يُعنى الخطيب بحسن الابتداء عليه كذلك أن يعنى بحسن الانتهاء.

ومن الأساليب المناسبة للخاتمة سلوك أسلوب الإيجاز.

فعلى الخطيب أن يختم خطبته بتعبير جميل يعيد انتباه الأسماع، يتضمن ذلك التعبير موجزاً للخطبة، وكلمات يسيرة معبرة عن المطلوب من السامعين لها.

ونجاح الخطبة في حسن الدخول إليها وحسن الخروج منها، وقد قالوا: إن الخطيب في خطبته كالطيار؛ فالمجيد في الطيران يظهر في الإقلاع والهبوط، وكذلك الخطيب إجادته في الابتداء والانتهاء.

ثالثًا: العناية بحسن التصوير، وروعة التعبير:

ويستعان على ذلك بأبواب بلاغية منها باب التشبيه، ومنه التشبيه التمثيلي، وباب الاستعارة، وباب المجاز؛ فإن هذه الأبواب تزيد المعنى جلاء، وتكسبه روعة وقبولاً.

فموضوع الخطبة ولو كان مستهلكًا فإنه يحسن بإيداعه في قالب بياني جذاب فيكون أسرع نفاذاً إلى النفوس.

قال خطيب أعرابي: "فإن الدنيا دار بلاء، والآخَرة دار قَرار، فخذوا من ممركم

لَمَقَرِّكم، ولا تَهْتِكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم"[١].

وقال خطيب آخر: "عباد الله: بادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم، وترحلوا فقد جُدَّ بكم، واستعدوا للموت فقد أظلكم، وكونوا قوماً صِيح بهم فانتبهوا، واعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا"[٢].

رابعاً: الاستعانة بالكناية إن احتيج إليها:

الكناية أسلوب غير مباشر، وهو طريق بياني يختصر كثيراً من المعاني، ويصل به الخطيب إلى عمق المقاصد بجمل قليلة، ويتحاشى المباشرة التي قد تفضي إلى الاستقباح أو الأذية.

وقد استعمله القرآن الكريم، والرسول عليه الصلاة والسلام، وكذلك خطباء العرب.

قال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام لعدي: (إن وسادك لعريض)[٣].

وخطبة الحجاج المشهورة وفيها قوله: "

أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا متى أضعِ العمامة تعرفوني

أما والله إني لأحتمل الشرّ بحمله، وأحذوه بفعله، وأجزيه بنعله، وإني لأرى

---

[١] العقد الفريد (٤/ ٢٣٥).

[٢] العقد الفريد (٤/ ١٩٢).

[٣] رواه أبو داود، وهو صحيح.

رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وإني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللُّحى.

قد شمّرت عن ساقها فشمرا

ثم قال:

هـذا أوانُ الشَّـــدِّ فَـاشْـتَـدي زِيَـمْ قـد لـفّـهـا اللَّـيْـل بسَـــوَّاقٍ حُـطـمْ

لَـيْـسَ بـراعِـي إبـلٍ وَلَا غـنـمْ وَلَا بجَزَّارٍ على ظهْرِ وَضَـــمْ"[1].

خامسًا: استعمال حسن التخلص:

وحسن التخلص هنا في الألفاظ والأساليب؛ ففي الألفاظ على الخطيب أن يحسن التخلص بين فقرات الخطبة فيجعل بين الفقرات اتصالاً بألفاظ تؤدي إليه، فإذا انتهى من فقرة استعمل النداء، أو يقول: هذا وإن..، أو واعلموا أن...، أو ولا ريب أن..، ونحو ذلك، حتى تكون الخطبة كأنها جملة واحدة بلا تنافر.

وحسن التخلص في الأساليب يكون عند طروء ما يقطع على الخطيب تسلسل كلامه، فيسرع إلى التخلص من حراجة الموقف؛ كأن زل في كلمة فيستدرك مراده الصحيح منها بأسلوب مؤثر، أو احتاج إلى تقصير الكلام الطويل فيتخلص بأسلوب يناسب ذلك؛ فقد خطب أعرابي فلما أعجله بعض الأمر عن التصدير بالتحميد، والاستفتاح بالتمجيد، قال: (أما بعد، بغير ملالة لذكر الله

---

[1] البيان والتبيين (٢/ ٢١١).

ولا إيثار غيره عليه، فإنّا نقول كذا، ونسأل كذا)، فراراً من أن تكون خطبته بتراء أو شوهاء[١].

سادسًا: تنويع النداء:

فلا يبقى الخطيب على نداء واحد أو اثنين من أول الخطبة إلى آخرها، بل يعدد ويباعد قليلاً بين كل نداء وتاليه. فيقول مثلاً: أيها الناس، أيها المسلمون، أيها المؤمنون، عباد الله، أيها الفضلاء، ونحو ذلك.

ويستعمل النداء مصحوبًا بحرف النداء، وتارة بحذفه، وتارة يجمع، وتارة يفرد.

سابعًا: العناية بالزخرفة اللفظية:

ومن الأبواب في ذلك: باب السجع، وباب الطباق والمقابلة، وباب الجناس، والمراوحة في الخطاب بين الغَيبة والخطاب، وغير ذلك.

وهذه الأبواب ينبغي أن يؤخذ منها من غير إسراف؛ لأنها في الكلام كالحلي، ولا يجمل الحلي إلا إذا كان بقدر مناسب فإذا زاد عِيب.

وأيضًا ألا يكون ذلك متكلفًا غريبًا ووحشيًا، وإنما يكون بغير تكلف ولا إكثار ولا إغراب.

قام خالد بن عبد الله القسريّ على المنبر بواسط خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلّى الله عليه وسلم ثم قال: "أيها الناس، تنافسوا في المكارم،

---

[١] البيان والتبيين (٢/ ٦).

وسارعوا إلى المغانم، واشتروا الحمد بالجود، ولا تكسبوا بالمطل ذمّا، ولا تعتدّوا بالمعروف ما لم تعجّلوه، ومهما يكن لأحد عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها فالله أحسن لها جزاء وأجزل عليها عطاء؛ واعلموا أنّ حوائج الناس إليكم نعم من الله تعالى عليكم، فلا تملّوا النّعم فتحول نقما؛ واعلموا أنّ أفضل المال ما أكسب أجرا، وأورث ذِكرا؛ ولو رأيتم المعروف رجلاً لرأيتموه حسنًا جميلا، يسرّ الناظرين، ويفوق العالمين، ولو رأيتم البخل رجلاً لرأيتموه رجلاً مشوّها قبيحًا، تنفر عنه القلوب، وتغضي عنه الأبصار. أيها الناس، إنّ أجود الناس من أعطى من لا يرجوه، وأعظم الناس عفواً من عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل من قطعه، ومن لم يطب حرثه لم يزكُ نبته، والأصول عن مغارسها تنمو، وبأصولها تسمو. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم"[1].

[1] التذكرة الحمدونية (٦/ ٢٧٥).

تذوّقُ الشِّعر والاستشهاد به

خطبة الجمعة بالعربية تحتاج من خطيبها أن يكون ذا معرفة بالشعر العربي، ولا يشترط أن يكون الخطيب شاعراً، بل يكفيه في مهمته هذه أن يكون ذا دراية بهذا الفن من فنون العربية الذي هو زينة للكلام، وحجة للمتكلم، وطريق مختصر للوصول إلى الحقائق، وجالب لانتباه السامعين والتأثير فيهم.

فقد "خطب أحد الأمراء على المنبر فقال:" "أيها الناس: لا يمنعكم سوء ما تعلمون عنا أن تنتفعوا بأحسن ما تسمعون منا؛ فإن الشاعر يقول:

اعمل بقولي وإن قصرت في عملي ينفعك قولي ولا يضرك تقصيري[1]

والخطيب المتذوق للشعر يشد أزر خطبته ببيت أو أبيات ينتقيها ويضعها في الموضع المناسب من الخطبة، ويلقيها إلقاءً صحيحًا، سالمًا من كسر الوزن وعيوب القافية، فتقع على الأسماع موقعًا حسنا.

" خطب أعرابي قومه فقال: "الحمد لله، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى جميع الأنبياء. ما أقبح بمثلي أن ينهى عن أمر ويرتكبه، ويأمر بشيء ويجتنبه، وقد قال الأول:

ودَعْ ما لمتَ صاحبَه عليه فذمٌّ أن يلومَك من تَلُومُ

ألهمنا الله وإياكم تقواه والعمل برضاه"[2].

---

[1] العقد الفريد (٢/ ١١٧).

[2] العقد الفريد (٤/ ٢٣٦).

ويستعين الخطيب للوصول إلى تذوق الشعر وحبه وضبطه بالآتي:

١-كثرة القراءة في كتب الأدب التي تُعنى بالشعر إيراداً ونقداً وموازنة، ومن تلك الكتب: "البيان والتبيين" للجاحظ، و"الصناعتين" لابن رشيق، و"المثل السائر" لابن الأثير، و"الكامل في اللغة والأدب" للمبرد، و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" للجرجاني، و"العود الهندي" للسقاف، وغيرها.

٢-القراءة في دواوين الشعراء، خاصة من في شعرهم حكمة يمكن الانتفاع بها في الخطب؛ كدواوين: أبي العتاهية وعلي بن أبي طالب والشافعي، والمتنبي وشوقي، وحماسة أبي تمام وديوانه، وغيرها.

٣-الاطلاع على علمي العروض والقافية، فهما يضبطان الشعر، ويبينان مواضع الخلل فيه، وحينما يكون للخطيب معرفة بهذين العلمين فإنه إذا أراد تضمين خطبته شعراً سيختار الشعر السليم من الخلل؛ لأن الشعر قد يحصل فيه تصحيف بزيادة حرف أو كلمة أو نقصانهما أو تشكيل خاطئ لبعض الحروف، سواء كان ذلك في الكتب المطبوعة أم الكتب الاليكترونية أم في وسائل التواصل الاجتماعي.

٤-وإذا لم تكن للخطيب معرفة بعلم العروض فيمكن أن ينوب عن ذلك الحس والذوق المرهفان لديه، أو ما يسميه بعضهم بالأذن الموسيقية، ومن خلال ذلك يستطيع أن يميز الشعر. ولكن لا يصل إلى هذا الحس والذوق إلا بعد كثرة قراءة للشعر وترديد له، حتى يُضحي حِسُّه عند القراءة، وأذنه عند السماع، ولسانه

عند الإلقاء؛ تشعر بالخلل الوزني في الشعر.

فإذا كان الخطيب قليل المعرفة بالشعر، غيرَ محب له فإنه لو استشهد ببيت أو بيتين في خطبته فقد لا يفارقه الغلط في الوزن والقافية، وقد سمعنا خطباء من هذا الطراز يأتون إلى تلاوة الشعر فيكسرون وزنه ويعيبون قوافيه، وذلك نقص في الخطبة والخطيب، وربما تكون تلك الخطبة مسجلة وتنتشر في الآفاق وعلى وجهها شيء من هذه العيوب!

غير أننا نقول: إذا كان الخطيب لا يتذوق الشعر ولا يدريه فالخير له أن ينحيّه عن خطبته ويكتفي بالنثر، فإن احتاج إلى بعض الأبيات فليسمعها من المجيدين، أو يعرضها عليهم ليصححوا له قراءتها حتى لا يسيء إلقاءها على المنبر، والإنسان متعلم حتى يموت، ولا عيب في سؤال أهل التخصص ولو كانوا أقل شأنًا أو سنًا أو علما.

قال وكيع بن الجراح رحمه الله: "لا يكون الرجل عالمًا حتى يسمع ممن هو أسن منه، وممن هو دونه، وممن هو مثله".

وأحب أن أختم هذا المقال ببعض التنبيهات المتعلقة بالاستشهاد الشعري في خطبة الجمعة:

١-اختلف العلماء في جواز إيراد الشعر في خطبة الجمعة، والراجح الجواز إذا كان الشعر مباحًا وبقدر الحاجة.

٢-الشعر له دور كبير في استنهاض الهمم، وإلهاب العواطف، وتحريك

المشاعر، واسترعاء الانتباه، ولما كان هذا الفن العربي كذلك فإن خطبة الجمعة تحتاج إليه، خصوصًا إذا كان شعراً حسن المبنى والمعنى، وكان أداء الخطيب في إلقائه جيدا.

ولما عرف المسلمون الأوائل من الصحابة ومن بعدهم قدر الشعر كانوا يستشهدون به في مواطن شتى، فخطبة الجمعة أحرى بأن تحلّى بشيء من الشعر[١].

٣-ما أجمل الخطبة التي تتشح بتنوع الاقتباس: آية قرآنية، حديث نبوي، قول أثري، قصة قصيرة مؤثرة، ومنها أيضًا بيت أو بيتان من الشعر، فخلو الخطبة من الاستشهاد الشعري مع وجود الحاجة إليه قصور.

٤-ينبغي أن يكون الاستشهاد بالشعر قليلاً، فيكون كالملح في الطعام؛ فإذا زاد فهو معيب.

٥-إذا رزق الخطيب قول الشعر الجيد فيحسن أن ينظم بعض الأبيات في مواطن من خطبه للجمعة حينما لا يجد ما يريد من شعر غيره. كما فعل قس بن ساعدة في خطبته المشهورة:

"أيها الناس، اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة وأنهار مجراة. إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض

---

[١] ينظر كتاب: " فصول أدبية" باب: " تذكرت قول الشاعر" صـ٣٠٢.

لعبرا! ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ يقسم قس بالله قسمًا لا إثم فيه إن لله دينًا هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكرا! ويروى أن قسًا أنشأ بعد ذلك يقول:

فِيْ الـــذَّاهِـــبـــين الأَوَّلـــيـ ... ـنَ مِـنَ الـقُـرون لـنـا بَصـــائـرْ
لَمَّـــا رَأَيْـــتُ مُـــوَارِداً ... لِـلْـمَـوْت لَـيْـسَ لَهَـا مَصَـــادِرْ
ورَأَيْـتُ قَـوْمِـي نَـحْـوَهـا ... تَمْضِي الأكـابـر وَالأصَـــاغِـرْ
لَا يَـــرْجِـــعُ الْمَـــاضِي وَلَا ... يَـبْـقَـى مِـنَ الـبَـاقِـينَ غـابـرْ
أَيْـــقَـــنْـــتُ أَنِّي لَا مَحَـــا ... لَـةَ حَيْثُ صَـــارَ القَوْمُ صَـــائرْ"[1].

[1] صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (١/ ٢٥٥).

الاستعانة بالأمثال العربية الفصيحة

ترفل اللغة العربية بفنون متعددة، توسع من دائرتها اللغوية، وتمتد بها آفاقها الجمالية، وتزيد بها صورها التعبيرية، مما يجعل المتكلم في روض أريض ينظم منه عقداً كلميًا متنوع الزهر مختلف العَرْف.

ومما نجده في روض العربية الأنيق: الأمثال العربية التي يزين بها الخطيب خطبته، ويعتضد بها في الإقناع بما يقوله، ويقرب بها معاني ما يدعو إليه أو يحذر منه.

يقول أبو هلال العسكري: "ثمَّ إِنِّي مَا رَأَيْت حَاجَة الشريف إِلَى شَيْء من أدب اللِّسَان بعد سَلَامَته من اللّحن؛ كحاجته إِلَى الشَّاهِد والمثل والشذرة والكلمة السائرة؛ فَإِن ذَلِك يزِيد الْمنطق تفخيماً ويكسبه قبولاً، وَيجْعَل لَهُ قدراً فِي النُّفُوس، وحلاوةً فِي الصُّدُور"[1].

وقد ألفت في الأمثال الفصيحة كتب كثيرة؛ منها أمثال منثورة وأخرى منظومة، فعلى الخطيب أن يقرأ فيها ويردد النظر بين أعطافها حتى ينطبع في ذهنه كثير منها، فإذا حضّر الخطبة وشّحها ببعض الأمثال التي تناسب المقام والموضوع.

فعلى الخطيب أن يتخير لخطبته من تلك الأمثال ما يتصل بكلامه، ويسهل فهمه، ويحسن لفظه ومعناه، ويبتعد عما لا يناسب التمثل به منها على منبر الجمعة؛ لاستقباحها، أو غرابتها، أو نبوّ كثير من الأفهام عن إدراك مراميها.

---

[1] جمهرة الأمثال (١/ ٤).

وسنورد هنا بعض تلك الأمثال الحسنة مصحوبة بموضوعات يمكن إدراجها فيها تعين الخطيب في خطبة الجمعة:

فنقول: إذا أراد الخطيب أن يتحدث عن تحذير أهل العلم من الزلل لكونهم قدوة للناس، وأن العوام يقلدونهم فالمثل الذي يقوي حجته في هذا: "**إذا زَلّ العَالِمُ زَلَّ بِزَلَّتِهِ عَالَمٌ**".

وإن شاء أن يتكلم عن تألمه من إعراض الناس عن علمائهم القريبين منهم، وضعف معرفتهم لأقدارهم، والتفاتهم للبعيدين الذين قد يكونون أقل علمًا من علمائهم فالمثل: - "**أزهدُ الناسِ بالعالم أهلُه**" - يسعفه في هذا.

وحينما يخطب عن الزهد في الدنيا، والتخفف من أعلاقها وما يشغل فيها فهناك المثل "**إنَّ السَّلاَمَةَ مِنْهَا تَرْكُ ما فيها**".

وعندما يتكلم عن بيان نقص الإنسان وبُعده عن الكمال في المحاسن، والسلامةِ من جميع المساوئ؛ ليحث على العفو عن أخطاء الأصدقاء واحتمال بعض زلاتهم فيعينه على ذلك المثل: "

ولَسْـــتَ بِمُسْـــتَبْقِ أخاً لا تَلُمُّـهُ على شَعَثٍ، أيُّ الرجالِ المهذَّبُ؟" .

ولما يذكر الحديث عن الأذلاء الذي غدوا أعزاء بغير استحقاق يذكر المثل "**إنَّ البُغَاثَ بأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ**".

والبغاث: نوع ضعيف من الطيور، واستنسر: صار كالنسر.

ومتى تحدث عن غاية منشودة ينتظرها الإنسان ويتمناها ويسعى في طريقها

فالمثل: - "إِنَّ غَداً لنَاظِرِهِ قَرِيبُ" - يفي له بالغرض.

ويوم يقارن بين شرين أحدهما أقل من الآخر فله الاستعانة بمثل: "بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ".

وإذا أراد الحث على فعل الخير وأن الخير يبقى أثره، والتحذير من فعل الشر وأن للشر مغبة سيئة فله الاستعانة بهذا المثل: "

الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ والشَّرُّ أَخْبَثُ ما أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ"

وإن شاء الحديث عن تشابه الحاضر بالماضي في بعض الأمور، فمثل: - "ما أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالبَارِحَهْ" - يعينه على ذلك.

وحينما يتحدث عن حسن العاقبة للأمور الصالحة بعد ركوب المشقة ولقاء التعب في سبيلها، حاثًا على الصبر في طريق الحمد، واعداً بالغاية الحميدة المنتظرة ففي المثل: - "عند الصَّبَاح يَحْمدُ القومُ السُّرَى" - إعانة وحجة.

والسرى: سير عامة الليل.

وعندما يريد التخفيف من بعض المصائب ويسلِّي منها، وأن الشدة الحاضرة قد سبقها رخاء وراحة، وأن الأيام دول لا تدوم على حال فهناك مثل في قالب شعري يختصر له الحقيقة ويقربها للناس بأسلوب عربي جميل. وهو: "

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ويَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرّ".

ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وننبه الخطباء في باب الأمثال على الآتي:

١- العناية بمعرفة إيراد الأمثال إيراداً صحيحًا؛ فلا يستشهد الخطيب بالمثل إلا في مناسبة تشابه مورده الذي قيل فيه. فإذا قال: "الحديث ذو شجون" فإن هذا المثل يذكر في حديث يذكِّر بحديث آخر، وفي أمر يتصل به سواه. قال الميداني عند هذا المثل: "يضرب هذا المثل في الحديث يُتَذَكر به غيره"[١].

٢- ألا يبدل من المثل كلمة بأخرى؛ إذ التبديل قد يحرف المعنى في ذلك المثل؛ فمثلاً بعض الخطباء إذا أراد أن يستشهد بمثل على جناية المرء على نفسه يقول: "وعلى نفسها جنت براقش".

وحسب علمي أن المثل إنما ورد هكذا "عَلَى أَهْلِهَا تَجْنِي بَرَاقشُ"، قال الميداني: "كانت بَرَاقشُ كلبةً لقومٍ من العرب، فأغير عليهم، فهَرَبُوا ومعهم بَرَاقش، فاتبع القومُ آثارَهُم بنُبَاح بَرَاقش، فهجموا عليهم فاصطلموهم، قَال حمزة بن بيض:

لم تكن عن جناية لَحِقَتْنِي ... لا يَساري ولا يَميني رَمَتْنِي
بل جَنَاها أخٌ عليَّ كريمٌ ... وعلى أهلها بَرَاقِشُ تَجْنِي"[٢].

والمثل ورد هكذا "على أهلها" في كتب الأمثال المعروفة[٣]. وفي رواية: "دلّت براقش".

---

(١) مجمع الأمثال (١/ ١٩٧).

(٢) مجمع الأمثال (٢/ ١٤).

(٣) ينظر: الأمثال للهاشمي (١/ ١٧٠)، الأمثال لابن سلام (ص: ٣٣٣)، جمهرة الأمثال (٢/ ٥٢)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (ص: ٤٥٩)، مجمع الأمثال (٢/ ١٤).

٣-وكما لا يغير اللفظ من المثل كذلك لا يغير إعرابه، فـ "المثل يحكى كما هو، فلا يغيَّر إعرابًا ولا خطابًا؛ ففي هذا المثل قال:" باريْها، بتسكين الياء، والقياس فتحها؛ لأنها المفعول الثاني لـ "أعط".

وفي المثل الآخر: "الصَّيفَ ضيعتِ اللَّبن" جاء بخطاب الأنثى فيخاطب به الرجل في التمثيل أيضًا من دون تغيير في الخطاب، قال أبو هلال العسكري: "وَيَقُولُونَ: الْأَمْثَال تحكى. يعنون بذلك: أَنَّهَا تضرب على مَا جَاءَت عَن الْعَرَب وَلَا تغير صيغتها"، وقال أيضًا: "(ضيعتِ) بِكَسْر التَّاء وَإِن خاطبت بِهِ مذكراً؛ لِأَن الْأَمْثَال تحكى. وَمعنى ذَلِك: أَن الْمثل يتَمَثَّل بِهِ أول مرّة، ثمَّ لَا يُغير عَن صيغته فِي سَائِر الْأَحْوَال"[1].

(١) فصول أدبية (٧٩).

بعضُ الألفاظ الخاطئة لغةً وتصويُبها

النطق اللُّغوي السليم للكلمات العربية جمال يأسر الأسماع، ويشد الأذهان نحو المتكلم، ويورثه الاستمتاع وحب الاستمرار في الحديث، وهو زينة لصاحبه بين السامعين، ورتبة سامية له في نفوس المتلقين.

ومنبر الجمعة مقام سامٍ يظل الناس منصتين لمن يخطب عليه زمنًا، ويأخذون عنه الاهتداء والاقتداء في تلك اللحظات، ولغة الخطيب لها أثر بين جمهوره، وسيجد فيهم من يحاكيه في استعمال الكلمات التي يفوه بها على منبره، بل لو تكلم أحد مستمعيه بين الناس بكلمة أو جملة فقيل له: إن هذه الجملة خاطئة، فسيقول: كيف تكون خاطئة وقد سمعتها من خطيبنا يوم الجمعة!

لكننا لو سمعنا بعض الخطباء اليوم فسنجد أن هناك كلمات خاطئة لغةً، وصلت إلى لسانه بسبب فشوها في البيئة أو الإعلام، أو اشتهرت قبل زمن على خلاف الأصل اللغوي الصحيح، فصارت متداولة بين الناس.

وفي هذا المقال سنذكر بعض الكلمات الخاطئة وصوابها في لغة العرب.

أولاً: ألفاظ حديثية يقرأها بعضهم قراءة لغوية خاطئة:

١-سداداً من عيش:

جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ، تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ

قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سدَادًا مِنْ عَيْشٍ...).

فبعض الخطباء يقرأ هذه الكلمة: (سدَادًا) بفتح السين، والصواب: بكسرها (سِدَادًا)؛ إذ المعنى يختلف باختلاف الكسرة والفتحة.

قال ابن الأثير: «حتى يصيب سداداً من عيش؛ "أي: ما يكفي حاجته. والسِّداد بالكسر: كل شيء سددت به خللاً، وبه سمي سداد الثغر والقارورة والحاجة"[(١)].

وقال الأزهري: "قَالَ أَبو عُبَيد: (سِداداً من عَيْش) هُوَ بِكَسْر السِّين، وكلّ شَيْء سَدَدْتَ بِهِ خَلَلاً فَهُوَ سِداد؛ وَلِهَذَا سُمِّي سِداد القارورة وَهُوَ صِمامُها؛ لأنّه يَسُدّ رَأسهَا، وَمِنْه سِدادُ الثَّغْر: إِذا سُدَّ بِالْخَيْلِ والرِّجال، قَالَ: وأَمَّا السَّداد بِالْفَتْح فَإِن مَعْنَاهُ: الإصابةُ فِي المنطِق أَن يكون الرجل مُسَدَّداً، يُقَال: إِنَّه لذُو سَدَاد فِي منطقِه وتدبيره، وَكَذَلِكَ الرَّمي"[(٢)].

وأول من أحدث هذا اللحن في هذه الكلمة المحدِّث: هشيم بن بشير؛ فقد ذكر الخطابي في غريبه عن النضر بن شميل قال: لما قدم علينا المأمون خراسان دخلنا عليه فحدثنا عن هشيم، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تزوج ذات جمال ومال، فقد أصاب سَداداً من عوز)، فقلت له: حدثنا عوف الأعرابي، عن الحسن، عن علي بن أبي

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٥٣).

(٢) تهذيب اللغة (١٢/ ١٩٥).

طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تزوج ذات جمال ومال، فقد أصاب سِداداً من عوز). فقال: أتلحنونني؟! فقلت: لحن هشيم، وكان لحاناً، فقال: وما حجتك؟ قال: قلت: قول العرجي:

أضـــاعـوني وأيَّ فَـتـى أضـــاعـوا لـيَـوْمِ كـريـهـةٍ وسِـــدادِ ثَـغْـرِ

قال: فسكت "[١].

٢-جلاء حزني:

جاء في مسند أحمد في الدعاء المشهور: (اللّهم إني عبدك وابن عبدك...) إلى قوله: (أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي..).

يقرأ بعض الخطباء في الخطبة، أو بعض أئمة التراويح في الوتر كلمة (جلاء) بفتح الجيم، والصواب كسرها، قال أبو الحسن المباركفوري:" (وجِلاء همي وغمي) بكسر الجيم، أي: إزالتهما وكشفهما، من جلوت السيف جِلاء بالكسر أي: صقلته "[٢].

وقال الفيومي:" وَجِلَاءً مِثْلُ: كِتَابٍ "[٣].

قال الخطابي -بعد أن أورد بعض الألفاظ الحديثية التي يحصل خطأ في قراءتها-:" ومن تتبع هذا الباب في الحديث وجد منه الكثير، وفيما أوردت دليل على ما أردت، فواجب على من دأب في طلب الحديث ولهج بتتبع طرقه أن يُعنى أولاً

---

[١] غريب الحديث للخطابي (١/ ٥٥).

[٢] مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٢٠٧).

[٣] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ١٠٦).

بإصلاح ألفاظه وإحكام متونه؛ لئلا يكون حظه من سعيه عناء لا غناء معه، وتعبًا لا نُجح فيه "[١].

ثانيًا: أفعال يقرأها بعضهم قراءة لغوية خاطئة:

١-شلّت:

يقول بعض الخطباء وغيرهم:" شُلَّتْ "بضم الشين، مثل: شُلَّتْ يمين فلان، والصواب: شَلَّتْ" -بفتح الشين- أو أَشَلَّها اللهُ، أو أُشِلَّتْ.

قال الزبيدي: "وقد شَلَّتْ يَدُهُ تَشَلُّ- بالْفَتْحِ كَمَلَّ يَمَلُّ، وأَصْلُهُ شَلِلَ، كفَرِحَ، قالَ ثَعْلَبٌ: وهي اللُّغَةُ الفَصِيحَةُ- شَلاًّ، وشَلَلاً، وأُشِلَّتْ، وشُلَّتْ، مَجْهُولَيْنِ نَقَلَهُما ثَعْلَبٌ في فَصِيحِهِ، وقالَ في الأَخِيرَةِ: إِنَّها رَدِيئَةٌ، وقالَ شُرَّاحُهُ: ضَعِيفَةٌ، مَرْجُوحَةٌ، وقالَ الْفَرَّاءُ: لا يُقالُ: شُلَّتْ يَدُه، وإِنَّما يُقالُ: أَشَلَّها اللهُ"[٢].

وقال الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد في شرحه قولَ الشاعر:

شَـلَّـتْ يَمِينُكَ إِنْ قَتَلْتَ لَمُسْـلِمًا حَـلَّـتْ عَـلَـيْـه عُـقُـوبَـةُ الْمُـتَـعَـمِّـدِ

اللغة: "شلت" بفتح الشين، وأصل الفعل: شلِلت - بكسر العين التي هي اللام الأولى - والناس يقولونه بضم الشين على أنه مبني للمجهول، وذلك خطأ "[٣].

٢- صعد:

يقول بعض الخطباء:" صَعَد "-بفتح العين- مثل: فلما صَعَدتُ المنبر،

---

[١] غريب الحديث للخطابي (١/ ٥٧).

[٢] تاج العروس من جواهر القاموس (٢٩/ ٢٧٨).

[٣] شرح ابن عقيل(الحاشية) (١/ ٣٨٢).

والصواب:" صعِد "-بكسر العين[١].

٣- يقدم:

يقول بعض الخطباء:" يقدُم فلان من مكان كذا "بضم الدال من يقدم، والصواب:" يقدَم "بفتح الدال، بمعنى: يأتي؛ لأن الفعل «قَدِمَ» بمعنى: رجع، من باب فَرِحَ؛ فهو مكسور العين في الماضي مفتوحها في المضارع.

وأما يقدُم-بضم الدال- فمعناها: يتقدم غيرَه فيكون أمامهم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨][٢].

٤- يطعن:

يقول بعضهم:" يطعَن "بفتح العين، حينما يعبر عن الطعن الحسي فيقول: فلان طعن بالرمح أو السكين يطعَن طعنًا، والصواب: يطعُن، بضم العين، وأما يطعَن-بفتح العين- فللطعن المعنوي في الأعراض، مثل: فلان يطعَن في عرض فلان.

لكن قال الزبيدي:" وبعضُهم يقولُ: يَطْعُن بالرُّمْح، ويَطْعَن بالقَوْلِ، ففَرق بَيْنهما، وقالَ الكِسائي: لم أَسْمَعْ أَحداً مِن العَرَبِ يقولُ: يَطْعَنُ بالرُّمْح ولا في الحَسَبِ، إنّما سَمِعْتُ يَطْعُن. وقالَ الفرَّاء: سَمِعْتُ أَنا يَطْعَنُ بالرُّمْحِ "[٣].

---

[١] ينظر: المصباح المنير (ص: ١٧٧)، معجم الصواب اللغوي (١/ ٤٨٧).

[٢] المصباح المنير (٢/ ٤٩٣)، معجم الصواب اللغوي (١/ ٨٢٨).

[٣] تاج العروس من جواهر القاموس (٣٥/ ٣٥٢).

وقال الفيومي:" وأجاز الفراء (يَطْعَنُ) في الكلّ بالفتح؛ لمكان حرف الحلق "[١].

٥-تواجد:

بعض الخطباء يستعمل هذا الفعل بمعنى حضر، فيقول: فلان تواجد في ذلك المكان، أو يخاطب جمهوره فيقول: وعليكم التواجد في مكان كذا وكذا. والصواب: فلان وجد أو حضر في مكان ذلك المكان، وعليكم الحضور في مكان كذا وكذا.

والسبب أن هذه الكلمة لم ترد في المعاجم القديمة بمعنى الوجود والحضور، وإنما وردت بمعنى آخر، يقال: (تواجد) فلَان أرى من نَفسه الوجد، والتواجد في اللغة هو إظهار الوجد أي: الحبّ الشديد، وتواجد الشَّخصُ: أظهر من نفسه الوجدَ أو الحُزن" تواجد أمام أهل الفقيد "[٢].

ثالثًا: أسماء يقرأها بعضهم قراءة لغوية خاطئة:

١-صلب:

يقول بعضهم:" صَلْب "-بفتح الصاد-، مثل: مكان صَلب، والصواب:" صُلب "-بضم الصاد[٣].

---

[١] المصباح المنير (٢/ ٣٧٣).

[٢] ينظر: المعجم الوسيط (٢/ ١٠١٣) معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٤٠٢) معجم الصواب اللغوي (١/ ٢٦٩).

[٣] لسان العرب (٢/ ٦٣٧)، نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد (ص: ٤٦)، معجم الصواب اللغوي (١/ ٤٨٩).

٢- إربًا إربًا:

يقول بعضهم:" إِرَبَاً إِرَبَاً "بفتح الراء، مثل: قطعته إربًا إربًا، والصواب:" إِرْبًا إِرْبًا "؛ لأن الإِرْبِ معناه العضو، فقولهم: قَطَّعْتُه إِرْباً إِرْباً، أَي: عُضْواً عُضْواً[١].

٣- نيء:

يقول بعضهم:" نَيِّء "، بفتح النون وكسر الياء وتشديدها، مثل: لحم نَيِّء، والصواب:" نِيْء "، بكسر النون وسكون الياء، قال ابن الأثير:" يقال: نَاءَ اللَّحمُ يَنيء نَيْئاً بوزن ناعَ يَنِيع نَيْعاً فهو نِيءٌ بالكسر كَنِيعٍ "[٢].

٤- حنكة:

يقول بعضهم:" حِنكة "بكسر الحاء، مثل: فلان ذو حِنكة، والصواب:" حُنكة "بضم الحاء[٣].

٥-البداية:

اشتهرت هذه الكلمة، وجعلها علماء عنوانًا لبعض كتبهم، وقد اختلف أهل اللغة فيها:

قال المُطَرِّزِيّ:" (البداية) عامية، والصواب: البُداءة، وهي فعالة من بدأ "[٤].

وقال الصغاني:" وبِدَاءَةُ الأمرِ - بالكَسْرِ والمَدِّ -: ابْتداؤه. وقَوْلُ العامَّةِ: البِدايَةُ

---

[١] تاج العروس من جواهر القاموس (٢/ ١٦).

[٢] النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٩٤).

[٣] تاج العروس من جواهر القاموس (٢٧/ ١٢٧).

[٤] المغرب في ترتيب المعرب (ص: ٣٥).

- مؤازاةً للنِّهاية: لَحْنٌ، ولا تُقاس على الغَدَايا والعَشايا؛ فإنَّها مَسْموعةٌ بخلاف البِداية "[١].

وقال ابن بري:" من ذلك قولهم: (البِدايةُ) باليمنى. وصوابه: البُداءة، بضم الباء، والهمز؛ لأنه من بدأت، فلامه همزة. وعن الأصمعي في مصدر بدأ: بُدْءاً وبُدْأَةً وبَدْأَةً "[٢].

وقال النووي:" البداية لحن، وصوابه: البداءة- بضم الباء وبالمد- والبدأة - بفتح الباء وإسكان الدال والقصر- والبدوءة- بضم الباء والمد- "[3].

هذا قول المانعين من استعمال كلمة البداية، وأما المجيزون؛ فقد قال الزبيدي:" وأَما البِدَايَةُ-بِالْكَسْرِ والتحتيَّة بدلَ الْهمزَة- فَقَالَ المطرزيُّ: لُغةٌ عامِّيَّة، وعدَّها ابْن بَرّيَ من الأَغلاط، وَلَكِن قَالَ ابنُ القَطَّاع: هِيَ لغةٌ أَنصاريّة، بَدَأْتُ بالشيءِ وبَدِيتُ بِهِ: قَدَّمته: وأَنشد قولَ ابنِ رَوَاحَة:

بـاسـمِ الإله وَبِـهِ بَـدِيـنَـا وَلَـوْ عَـبَـدْنَـا غَـيْرَهُ شَـقِـينَـا "[٤].

وقال بعض المعاصرين:" ذكرت المعاجم كلمة «البداية» وأجازت استعمالها، وقد قال ابن جني: إن العرب أبدلوا الهمزة لغير علة طلبًا للتخفيف، كقولهم: «بديت في بَدَأت" وقد أقرَّ مجمع اللغة المصري مصدرية هذه الصيغة المستحدثة،

---

[١] العباب الزاخر (١/ ٢).
[٢] غلط الفقهاء (ص: ١٤).
[3] تحرير ألفاظ التنبيه (ص: ٥١).
[٤] تاج العروس (١/ ١٣٨).

ولاحَظَ أن كلمة «البِداية» مستعملة بين المؤلفين من قديم كما في عنوان كتاب البداية والنهاية لابن كثير"[١].

ويبدو لنا أن الخَطْب سهل في هذه الكلمة، وإن كان قول الأكثرين السابقين إنكارها، ولو استبدلها الخطيب بقوله: أول الأمر وآخره بدل البداية والنهاية، ولو قال: أول الأمر بدل بداية الأمر، ونحو ذلك؛ لكان هذا أولى؛ خروجًا من الخلاف.

وبعد، فهذه أمثلة يسيرة، وللخطيب أن يرجع إلى معاجم الأخطاء الشائعة، وأن ينظر في "درة الغواص في أوهام الخواص" مع ملحقه لبعض المعاصرين، والكتب التي ذكرناها في هذا المقال؛ ففيها فائدة كبيرة في هذا الباب.

---

[١] معجم الصواب اللغوي (١/ ١٧٦).

الثروة اللغوية وحاجة الخطيب إليها

لغتنا العربية لغة معطاء، وخزانها اللغوي واسع الثراء، مما يتيح للمتكلم أو الكاتب أن يعبر عن كل ما يجول في خاطره بمفردات كثيرة غير مكررة، ويركَب إلى التعبير المتنوعِ أساليبَ إنشائية متعددة. س

وقد غدت لغتنا العزيزة بهذا الغنى الفذ مواكِبة لكل تطور الحياة العلمي والتكنلوجي، فكل مصنوع جديد يمكن لهذه اللغة الولود أن تصوغ له اسمًا، بناء على قواعدها الصرفية والدلالية.

وصدق حافظ يوم قال بلسان العربية:

وَسِـعْـتُ كِتَـابَ اللهِ لَفْظَـاً وغَـايَـةً ... وَمَا ضِقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظِـاتِ

فكيفَ أَضِـيقُ اليومَ عَنْ وَصْـفِ آلَـةٍ ... وتنسيقِ أَسْمَـاءٍ لِمُخْتَرَعَـاتِ[1]

وقد بذل علماؤنا الكرام في القديم جهوداً مباركة في جمع هذه اللغة من أفواه أهلها وتدوينها والكشف عن غموض مفرداتها وبيان مشتقاتها والاستشهاد لها، وغير ذلك من الخدمات المشكورة.

وفي العصر الحديث بذل العلماء كذلك جهوداً متنوعة في الحقل اللغوي، ومنها: تسمية المخترعات الحديثة ذوات الأسماء الأعجمية بأسماء عربية ضمن موازين معينة كموازين أسماء الآلة مثل: "مِفْعَل ومِفْعال ومِفْعلة"، وهناك صيغ أُخرى تدل على الآلة كاسم الفاعل ومبالغته مثل: فاعل، فاعلة، فعّالة، فِعال، فاعول،

---

[1] ديوان حافظ إبراهيم (ص: ٦٦).

فَعول.

فكان ما تقوم به مجامع اللغة العربية اليوم هو نظير ما تقوم به مجامع الفقه الإسلامي في الحفاظ على لغتنا وديننا؛ فالأولى تحفظ عرين اللغة من الوصم بالجمود والوقوف عجزاً عن تسميات الأشياء الجديدة والحكمِ عليها لغةً، والثانية تصون حصن الشريعة الإسلامية عن وصفها بأنها غير صالحة لهذا الزمان لعدم استيعابها- في الحكم- ما جدَّ من شأن الحياة والأحياء، فكما يبين الفقهاء الحكم الشرعي في النوازل والقضايا الفقهية المعاصرة؛ يصدر كذلك علماء اللغة أحكامهم اللغوية على القضايا العصرية المرتبطة باللغة.

إن المكتبة العربية مليئة بالمعجمات الكثيرة التي تجمع مفردات اللغة، وتكشف اللثام عن معانيها، ابتداء من معجم العين للخليل بن أحمد(ت: ١٧٠هـ) إلى المعجم الوسيط (عام: ١٩٦٠م). إضافة إلى الجهود الفردية لعلماء العربية اليوم.

ولا شك أن الخطيب يحتاج إلى ثراء في المفردات، وتنوع في التراكيب القولية وترادف فيها؛ لأن ذلك يمكنه من الاتساع في القول بلا إملال، والاستمرار في هذا المجال بلا إخلال ولا إقلال، ويجعله قادراً على تجلية أفكاره في أجمل القوالب، وآنق الأساليب، غير دائم الوقوف على ثيّب التعبيرات ومستعملها، بل هو بوروده هذا المنهل يصبح رب أبكار في ألفاظه ومعانيه وأساليبه.

والكتب التي تعينه على الوصول إلى هذه الغاية كثيرة ومتعددة، وطرق عرضها للمادة اللغوية وترتيبها والحديث عنها مختلفة.

ويمكننا أن نقسم ما يحتاجه الخطيب للقراءة والمطالعة من هذه الكتب إلى أقسام:

القسم الأول: الكتب التي تتناول المفردة اللغوية ببيان معناها وتصريفاتها المختلفة.

وطريقة الترتيب في عرض المادة اللغوية في كتب هذا القسم: أنها ترتبها ترتيبًا أبجديًا؛ فمنها ما يكون حسب أوائل الكلمات، ومنها ما يكون على أواخرها.

والكتب في هذا القسم كثيرة، منها كتاب: "القاموس المحيط" للفيروز آبادي (ت: ٨١٧هـ).

وهذا الكتاب –إضافة إلى المادة المعجمية وبقية علوم العربية فيه– هو دائرة معارف تحتوي على معلومات كثيرة في علوم متعددة–علوم دينية وعلوم دنيوية–.

وقد قرأت في هذا الكتاب من أوله إلى حرف الصاد فألفيت فيه علمًا جماً، وفوائد يرحل إليها.

مثال من الكتاب:

فيما يختص بموضوعنا في مادة "خطب" قال المؤلف رحمه الله: "وخَطَبَ الخاطبُ على المِنْبَرِ خَطابَةً، بالفتح، وخُطْبَةً، بالضم، وذلك الكلامُ: خُطْبَةٌ أيضاً، أو هي الكلامُ المَنْثُورُ المُسَجَّعُ ونحوهُ. ورجلٌ خَطيبٌ: حَسَنُ الخُطْبَة، بالضم، وإليه نُسِبَ أبو القاسِمِ عَبْدُ الله بن محمد الخَطِيبِيُّ شَيْخٌ لابنِ الجَوْزِيّ،

وأبو حَنيفَةَ محمدُ بن عبد الله بن محمد الخَطيبيُّ المُحَدِّثُ"[١].

فحري بالخطيب أن يمر بهذا الكتاب النفيس، أو يطالع بعض أبوابه. وقد كُتبت عليه عدة كتب؛ أشهرها: "تاج العروس من جواهر القاموس" للزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ).

القسم الثاني: الكتب التي عنيت بتجميع المادة المعجمية تحت أبواب محددة من غير سرد عام لها حسب حروف المعجم.

وتشبه هذه الطريقة طريقة كتب السنن عند المحدثين؛ حيث رتبوها حسب الأبواب الفقهية، وطريقة السرد -في القسم الأول- حسب حروف المعجم تشبه طريقة كتب المسانيد عند المحدثين، حيث تروي مرويات كل صحابي على حدة، دون النظر إلى موضوعات الأحاديث.

ومن الكتب في هذا القسم: كتاب "المُخَصّص" لابن سيده ت: (٤٥٨هـ).

وقد ألف ابن سيده كتابين في اللغة: الأول: كتاب "المحكم والمحيط الأعظم"، وكانت طريقته فيه طريقة الخليل في كتاب "العين" حيث رتب مواده حسب مخارج الحروف بدأها بأحرف الحلق، وختمها بالأحرف الشفوية.

فلما رأى الحاجة داعية إلى مؤلَّف مبوّب ألف كتابه "المخصص".

يقول في مقدمة المخصص: "لما وضعت كتابي الموسوم بالمُحكَم مُجَنَّسًا لأدُلَّ الباحث على مَظَنَّة الْكَلِمَة الْمَطْلُوبَة أردْت أَن أعدل بِهِ كتابًا أَضَعهُ مُبَوَّباً حِين

---

[١] القاموس المحيط (ص: ٨١).

رَأَيْت ذَلِك أجدى على الفصيح المِدْرَهِ والبليغ المُفَوَّه والخَطيب المصقع، والشاعر المْجِيد المدقع، فَإِنَّهُ إِذا كَانَت للمسمى أَسمَاء كَثِيرَة وللموصوف أَوْصَاف عديدة تنقى الْخَطِيب والشاعر مِنْهَا مَا شاءا واتسعا فِيمَا يحتاجان إِلَيْهِ من سجع أَو قافية، على مِثَال مَا نجده نَحن فِي الْجَوَاهِر المحسوسة كالبساتين تجمع أَنْوَاع الرياحين، فَإِذا دَخلهَا الْإِنْسَان أهوت يَده إِلَى مَا استحسنته حاستا نظره وَشمه"[1].

هذا ما قاله ابن سيده عن كتابه المحكم. وعن كتب غيره قال: "وتأملت مَا أَلفه القدماء فِي هَذِه اللِّسَان المعربة الفصيحة وصنفوه لتقييد هَذِه اللُّغَة المتشعبة الفسيحة، فوجدتهم قد أورثونا بذلك فِيهَا علوماً نفيسة جمة، وافتقروا لنا مِنْهَا قلباً خسيفةً غير ذمَّة إِلَّا أَنِّي وجدت ذَلِك نشراً غير ملتئم، ونثراً لَيْسَ بمنتظم..."[2].

مثال من الكتاب:

فتحتَ باب الفصاحة ذكر عدة مواد، ومنها مادة "خطب" فقال: "خطب يخْطب واختطب وَهِي الْخطْبَة... خطب خطابة وَرجل خطيب حسن الْخطْبَة وَالْجمع خطباء... خطيب مصدع لَا يُبَالِي عِنْدِي من تكلم وَأَيْنَ تكلم، وَكَذَلِكَ مصقع، وَأنْشد:

---

[1] المخصص (١/ ٣٨).
[2] المخصص (١/ ٣٦).

خطباء حِين يقوم قائلنا بيض الْوُجُوه مصاقعٌ لُسْنُ

قَالَ أَبُو زيد: الْعَرَب تَقول: خطيب مصقع وشاعر مُرَقع؛ فالمصقع: الَّذِي يَأْخُذ فِي كل صقع من الْكَلَام، أَي: كل نَاحيَة مِنْهُ، والمرقع: الَّذِي يصل الْكَلَام بعضه بعض يرقع مَا انخرق مِنْهُ. وَبِهَذَا قيل للشعر: نظام؛ لاتصاله واتساقه،... إِنَّه لمسحل فِي خطبَته أَي: مَاض، وَقد انسحل بالْكَلَام جرى بِهِ"[1].

القسم الثالث: الكتب التي عنيت بجمع ألفاظ وجمل مترادفة في وصف الشيء الواحد، وجعلها تحت عنوانات محددة.

ومن أحسن الكتب في هذا كتاب "نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد" للكاتب النصراني: إبراهيم الْيَازِجِيّ (ت: ١٣٢٤هـ). وهو كتاب رائع جداً للخطيب والشاعر والكاتب.

فمن تصفح هذا الكتاب وجد أنه سفر أنيق جليل، جامع، غزير المادة، جزيل المباحث، جم الفوائد، سديد المنهج، حسن المنحى، مطرد التنسيق، قريب المنال، داني القطوف.

وأن راقمه ومنمّقه غزير المادة، واسع الاطلاع، متضلع من فنون الأدب، متقن لعلوم اللسان، وهو من خواص أهل الأدب وعليتهم، وأئمتهم، وآحادهم، وأفرادهم، مستوعب لأطراف الفن، جامع لشتيت الفوائد.

مثال من الكتاب:

---

[1] المخصص (١/ ٢٠٨).

ففي "الباب السادس الذي جعله في العلم والأدب وما إليهما" جعل فصلاً بعنوان "الخطابة" قال فيه: "يُقَالُ: فُلان خَطِيب مِصْقَع، مِصْدَع، بَسِيط اللِّسَان، قَوِيّ الْعَارِضَةِ، وَاسِع الْمُجَمّ، فَسِيح الْبَاع، رَحِيب الْمَجَالِ، بَعِيد النُّجْعَة، فَسِيح الْخُطَى، مُنْفَسِح الْخَطْو، بَعِيد الْخَطْو، بَعِيد الْغَايَةِ، بَعِيد الأَمَدِ، وَارِي الزَّنْد، مَصْقُول الْخَاطِرِ، طَلْق الْبَدِيهَة، سَمْح الْقَرِيحَة، وَاضِح الْمَنْهَجِ، حَسَن الْبَيَانِ، نَاصِع الْبَيَانِ، مُشْرِق دِيبَاجَة الْبَيَان، حَسَن اللَّفْظِ، أَنِيق اللَّهْجَة، جَزْل الْمَنْطِق، رَائِع الْمَنْطِق، عَذْب الْمَنْطِق، رَطْب اللِّسَانِ، بَلِيل اللِّسَان، خَلاب الْمَنْطِق، جَهِير الْمَنْطِق، وَجَهْوَرِيّ الْمَنْطِق، نَدِيّ الصَّوْت، أَجَشّ الصَّوْت، رَفِيع الصَّوْتِ، رَفِيع الْعَقِيرَة.

وَإِنَّهُ لَفَصِيح بَلِيغ، طَلِيق اللِّسَان، طَلِيق الْبَادِرَة، سَرِيع الْخَاطِرِ، حَافِر الْخَاطِر، غَمْر الْبَدِيهَة، ثَبْت الْبَدِيهَة، حَاضِر الذِّهْنِ، كَأَنَّمَا يَتَنَاوَلُ أَغْرَاضَهُ عَنْ حَبْل ذِرَاعه، وَكَأَنَّمَا يَتْلُو عَنْ ظَهْر قَلْبه، لا يَتَلَكَّأُ فِي مَنْطِقِهِ، وَلا يَتَلَجْلَجُ، وَلا يَتَلَعْثَمُ، وَلا يَتَوَقَّفُ، وَلا يَعْتَرِضُهُ حَصْر، وَلا تَنَالُهُ حُبْسَة، وَلا تُرْهِقُهُ عُقْلَة، تَجْرِي الْفَصَاحَة بَين شَفَتَيْهِ وَلَهَاتِهِ، وَتَجْرِي الْبَلاغَة بَيْنَ لِسَانِهِ وَفُؤَادِهِ، إِذَا تَكَلَّمَ تَحَدَّرَ تَحَدُّر السَّيْل، وَتَدَفَّق تَدَفُّق الْيَعْبُوب، وَمَلأ الأَسْمَاع وَالْقُلُوب، وَمَلأ الدَّلْو إِلَى عَقْد الْكَرَب.

... وَقَدْ فَجَّرَ اللَّهُ يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ عَلَى لِسَانِهِ، وَتَدَفَّقَتْ سُيُول الْبَلاغَة عَلَى لِسَانِهِ، إِذَا أَفَاضَ فِي كَلامِهِ مَلَكَ أَعِنَّة الْقُلُوب، وَرَدّ شَارِد الأَهْوَاء، وَقَادَ حَرُون الشَّهَوَات، وَقَوْم زَيْغ النُّفُوس، وَاسْتَدَرَّ مَاء الشُّئُون، وَخَشَعَتْ لَهُ الأَبْصَار،

وَسَكَنَتْ الْجَوَارِحُ، وَخَفقَتْ الأَفْئِدَةُ، وَطَارَتْ النُّفُوس خَشْيَةً وَرِقَّة، وَصَارَتْ جِبَال الْقُلُوب عِهْناً.

وَيُقَالُ: اِنْتَبَرَ الْخَطِيب إِذَا اِرْتَقَى فَوْقَ الْمِنْبَرِ، وَخَطَبَ فُلان فِي الْقَوْمِ، وَخَطَب الْقَوْمَ، وَقَامَ فِيهِمْ خَطِيباً، وَصَدَع بِكَلامِهِ، وَقَرَع الآذَان بِخِطَابِهِ، وَقَدْ اِرْتَجَلَ فُلان الْخُطْبَة، وَاقْتَضَبَهَا، وَابْتَدَهَا، وَاقْتَبَلَهَا، وَاقْتَرَحَهَا، إِذَا قَالَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُهَيِّئَهَا.

وَاحْتَفَلَ لِلْخُطْبَةِ وَالْكَلامِ، وَاحْتَشَدَ لَهَا، وَتَعَمَّل لَهَا، إِذَا تَهَيَّأَ لَهَا وَأَعَدَّهَا، وَيُقَالُ: اِسْتَبْحَرَ الْخَطِيب إِذَا اِتَّسَعَ لَهُ الْقَوْلُ، وَفُلان يَهْضِبُ بِالْخُطَب أَيْ يُسَحُّ سَحاً، وَقَدْ عَبَّ عُبَابه إِذَا أَفَاضَ فِي الْقَوْلِ، وَقَدْ أَطَالَ عِنَان الْقَوْل، وَامْتَدَّ بِهِ نَفَس الْكَلامِ، وَسَالَ أَتِيّه، وَطَفَح آذِيُّه.

وَيُقَالُ لِلْفَصِيحِ: هَدَرَتْ شَقاشِقُه، وَفِي إِحْدَى خُطَبِ الإِمَامِ عَلِيّ:" تِلْكَ شِقْشِقَة هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ "، وَصَعِدَ فُلان الْمِنْبَر فَأُرْتِج عَلَيْهِ، وَرُجِيَ عَلَيْهِ، وَحَصِرَ، إِذَا اِسْتَغْلَقَ عَلَيْهِ الْكَلامُ. وَفِي الأَمْثَالِ:" إِيَّاكَ وَالْخُطَب؛ فَإِنَّهَا مِشْوَار كَثِير الْعِثَار ".

وَيُقَالُ: هَذِهِ خُطْبَة مُجْمَعَة أَي: لَمْ يَدْخُلْهَا خَلَل. وَيُقَالُ فِي الذَّمِّ: فُلانٌ مُتَشَدِّقٌ، مُتَفَيْهِق، ثَرْثَار، مِهْذار، غَثّ الْمَنْطِق، تَفِه الْكَلام، قَدْ مَلَكَتْ خِطَامه الرَّكَاكَة، وَدَفَعَ فِي صَدْرِهِ الْعِيّ، وَإِنَّهُ لَيَمْلأ فَاه بِالْهُذَرِ، وَيَتَمَطَّق بِالْهُرَاءِ، وَيَتَنَطَّعُ بِفُضُولِ الْقَوْلِ، وَيَتَكَثَّرُ بِلَغْو الْمَقَال.

وَإِنَّهُ لَمُسْتَهْجَن اللَّفْظ، مُسْتَهْجَن الإِشَارَة، أَرَتّ اللِّسَان، كَلِيل الْخَاطِر، إِذَا تَكَلَّمَ

اِنْصَرَفَتْ عَنْهُ الْوُجُوهُ، وَتَفَادَتْ مِنْ سَمَاعِهِ الآذَان، وَأَعْرَضَتْ عَنْهُ الْقُلُوبُ، وَانْقَبَضَتْ مِنْهُ الصُّدُورُ، وَسَئِمَتْهُ النُّفُوسُ.

وَإِنَّهُ لَيْسَ لِكَلامِهِ طَلاوَة، وَلا عَلَيْهِ رَوْنَق، وَلا وَرَاءهُ مَحْصُول، وَإِنَّمَا جُلُّ بِضَاعَتِهِ حَنْجَرَة صُلْبَة، وَشِقْشِقَة عَرِيضَة، وَأَلْفَاظ يَفْنَى بِكَثْرَتِهَا الرِّيق، وَتَضِيقُ مِنْ دُونِهَا أَصْمِخَة الآذَان"(١).

القسم الرابع: الكتب التي مثلت نموذجًا عمليًا لاستيعاب مفردات اللغة وتوظيفها في نص أدبي، يحتوي على مخزون معجمي كبير، وخير مثال على ذلك كتب المقامات.

وفي علية هذه المقامات: "مقامات الحريري (ت: ٥١٦هـ)".

فهذا الكتاب روضة غنّاء، وواحة فيحاء، متهدلة الجنى، واسعة الغنى، أبدع فيها الحريري أيما إبداع، وأضحت مقاماته تاج المقامات بلا نزاع، فقد كساها بالحُلل الأسلوبية الرائقة، ووشاها بالجمل الفصيحة الرائعة، وحشد فيها من المفردات اللغوية والأمثال الحكمية ما جعلها دائرة معارف للقارئين، وبحراً زاخراً بدُرر الأدب للمتأدبين، حتى أضحت في أفق عالٍ حاول جمعٌ من الأدباء والعلماء أن ينسجوا على منوالها مقامات لكنهم لم يبلغوا شأوها، ولا أدركوا أمدها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد تحدثت بالتفصيل عن كتاب "مقامات الحريري" وسابقه "نجعة الرائد" في

---

(١) نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد (٢/ ٢٦).

كتاب "فصول أدبية.

مثال من الكتاب:

في أولى مقاماته التي سماها بـ "لمقامة الصنعانية"، قال:

"حدّثَ الحارثُ بنُ هَمّامٍ قالَ: لمّا اقتَعدْتُ غارِبَ الاغتِرابِ. وأنْأتْني المَترَبَةُ عنِ الأتْرابِ. طوّحَتْ بي طَوائِحُ الزّمَنِ. إلى صنْعاء اليَمَنِ. فدَخَلْتُها خاويَ الوِفاضِ. باديَ الإنْفاضِ. لا أمْلِكُ بُلْغَةً. ولا أجِدُ في جِرابي مُضْغَةً. فطَفِقْتُ أجوبُ طُرُقاتِها مِثلَ الهائِمِ. وأجولُ في حَوْماتِها جَوَلانَ الحائِمِ. وأرُودُ في مَسارحِ لَحاتي. ومَسايِحِ غدَواتي ورَوْحاتي. كريماً أُخْلِقُ لهُ ديباجَتي. وأبوحُ إلَيْهِ بحاجتي. أو أديباً تُفَرّجُ رؤيَتُه غُمّتي... "[1].

ولمقامات الحريري شروح متعددة، من أحسنها شرح الشريشي (ت: ٦١٩هـ) وقد قيل: إن له ثلاثة شروح [الوجيز، والوسيط، والبسيط]. ولم يترك في كتاب من شروحها فائدة إلا استخرجها، ولا فريدة إلا استدرجها، فصار شرحًا يغني عن كل شرح تقدمه، ولا يحتاج إلى سواه في لفظ من ألفاظها.

---

[1] مقامات الحريري (ص: ١٨).

نماذج من الخطب الجيدة

على الخطيب الذي يريد أن يرقى بمستواه الخطابي أن يقرأ كثيراً في خطب المحسنين من الخطباء متقدميهم ومتأخريهم، ولا يقتصر في قراءته على مجال خطب الجمعة فحسب، بل يقرأ في مجالات الخطب الأخرى.

فللعرب مجالات متعددة للخطبة؛ فهناك خطب دينية، وخطب نكاح، وخطب منافرة ومفاخرة، وخطب وصايا، وخطب أمثال وحكم، وخطب تهنئة وخطب تعزية، وغير ذلك.

ولكن يجمع بينها حسن الفصاحة والبيان، وجودة التعبير، والثراء اللغوي، والجمال الأسلوبي، وهذه مناهل عذبة إذا أحسن الخطيب الاستسقاء منها أفادته إفادة كبيرة، فأضحى يحاكيها ولو لم يتعمد ذلك؛ لأن تضلعه منها يورثه قدرة على السير على منوال خطبائها.

وهذه الخطب مبثوثة في كتب الأدب، كـ "البيان والتبيين" و "العقد الفريد"، وبعض خطب الوعظ موجودة في كتب الرقائق؛ كـ"حلية الأولياء"، وقد جمع بعض المعاصرين من خطب العرب ما أودعها في كتاب واحد؛ مثل كتاب "جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة" لأحمد زكي صفوت.

وسنعرض في هذا المقال بعض الخطب القصيرة ليفيد منها خطيب الجمعة في لغتها وأسلوبها:

١-خطبة ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه خطيب رسول الله صلّى الله

عليه وسلم:

وقد قالها عند قدوم وفد بني تميم، وكان من العادة آنذاك أن يقدم الوفد على القوم ومعهم خطيبهم وشاعرهم.

فقام عطارد-خطيب بني تميم- فقال:" الحمد لله الذي له الفضل علينا، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا، وجعلنا أعزّ أهل الشرق، وآتانا أموالاً عظامًا نفعل فيها المعروف، وليس في الناس مثلنا. ألسنا رؤوس الناس وذوي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، ولو نشاء لأكثرنا، ولكنا نستحي من الاكثار فيما خوّلنا الله وأعطانا، أقول هذا، فأتوا بقول أفضل من قولنا، وأمر أبين من أمرنا، ثم جلس.

فقام ثابت رضي الله عنه وألقى هذه الخطبة:

"الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا، واصطفى من خير خلقه رسولا، أكرمهم نسبا، وأصدقهم حديثا، وأفضلهم حسبا؛ فأنزل عليه كتابه، وأتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان، فآمن برسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أنسابا، وأحسن الناس وجوها، وخير الناس فعالا، ثم كان أولَ الخلق استجابة لله، حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن؛ فنحن أنصار الله، ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن

آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولي هذا، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم"[١].

في خطبة ثابت تبدو المعاني الإسلامية واضحة في ألفاظها ومقاصدها، ويظهر عليها التسلسل العذب الذي نزهها عن التنافر واستكراه الكلمات بوضعها في غير مواضعها، وزينتها السلاسة الأسلوبية فجعلتها واضحة بينة.

٢-خطبة أعرابي:

عن الأَصمَعي قَال: حدثني شيخٌ من أهل العلم قَال: شهدت الجمعة بضرية -وهي قرية في طريق مكة من البصرة. - وأميرها رجل من الأعراب، فخرج وخطب ولفَّ على رأسه، وبيده قَوسٌ فَقَال: الحمد للَّه رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، أما بعد: فإن الدنيا دار بلاء، والآخَرة دار قَرار، فخذوا من ممركم لمَقَرِّكم، ولا تَهْتِكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم، واخرُجُوا من الدنيا إلى ربكم قبل أن يُخرج منها أبدانكم، ففيها جئتم، ولغيرها خُلقتم، ولن يستقبل أحدٌ يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله؛ فاستعجلوا لأنفسكم لما تقدمون عليه، لا لما تظعنون عنه؛ وراقبوا من ترجعون إليه؛ فإنه لا قويّ أقوى من خالق ولا ضعيف أضعف من مخلوق، ولا مهرب من الله إلا إليه؛ وكيف يهرب من يتقلّب بيني يدي طالبه ﴿ وَإِنَّمَا

---

[١] صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (١/ ٤٢٧).

﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم، والمدعو له الخليفة والأمير جعفر، قومُوا إلى صلاتكم "[١].

ففي هذه الخطبة نلاحظ وجازتها مع إيفائها بالمقصود، وحسن وصف الخطيب للدنيا والآخرة، ومراوحته في أساليبه الخطابية بين الخبر والإنشاء؛ كالالتفات من الحضور إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الحضور، والاستفهام والأمر والنهي والحث والتحضيض. وإطلاق بعض الجمل التي تغدوا كالمثل، وختم الخطبة بآية مؤثرة تكون كالختم على الخطبة.

٣-خطبة شداد بن أوس رضي الله عنه:

خطب شداد بن أوس فقال:" الحمد لله الذي افترض طاعته على عباده، وجعل رضاه عند أهل التقوى آثر من رضا خلقه، على ذلك مضى أولهم، وعليه يمضي آخرهم.

أيها الناس، إن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر، وإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، وإن السامع المطيع لله لا حجة عليه، وإن السامع العاصي لله لا حجة له، وإن الله إذا أراد بالعباد صلاحًا عمل عليهم صلحاؤهم، وقضى بينهم فقهاؤهم، وملك المالَ سمحاؤهم، وإذا أراد بهم شراً

---

[١] العقد الفريد (٤/ ٢٣٥).

عمل عليهم سفهاؤهم، وقضى بينهم جهلاؤهم، وملك المالَ بخلاؤهم "[١].

في هذه الخطبة سلك شداد سبيل الإيجاز، وإيراد جمل الخطبة مورد الحكم، واستعمل السجع والمقابلة، والنداء، وتأكيد الحقائق.

٤-خطبة عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

خطب عمر بن عبد العزيز فقال:" إن الدنيا ليست بدار قراركم، دار كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الظعن، فكم عامر موثق عما قليل مخرب، وكم مقيم مغتبط عما قليل يظعن. فأحسنوا -رحمكم الله- منها الرحلة بأحسن ما يحضركم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى. إنما الدنيا كفئ ظلال قلص فذهب، بينا ابن آدم في الدنيا ينافس فيها وبها قرير العين إذ دعاه الله بقدره، ورماه بيوم حتفه، فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، إنها تسر قليلا، وتجر حزنًا طويلا "[٢].

خطبة مشبعة بالأساليب الرائعة المؤثرة؛ فقد استعمل فيها أساليب: الخطاب والغيبة، والأمر الإرشادي، والتأكيد والتكثير، والتضاد، والتمثيل والاستعارة والإيجاز، وغير ذلك، وهذا التنويع يساعد على الإقناع بمطلوب الخطبة.

٥-خطبة يوسف بن عمر الثقفي:

قام يوسف خطيبًا فقال:" اتقوا الله- عباد الله- فكم من مؤمّل أملاً لا يبلغه،

---

[١] البيان والتبيين (٣/ ٢٩٠).

[٢] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٩٢).

وجامعٍ مالاً لا يأكله، ومانعٍ ما سوف يتركه؛ ولعلّه من باطل جمعه، ومن حقّ منعه؛ أصابه حراما، وورّثه عدوّا؛ واحتمل إصره، وباء بوزره، وورد على ربّه آسفًا لاهفا «خسر الدّنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين»[1].

سلك الخطيب هنا للوعظ بقوله مسلك ذكر الحقائق التي لا ينكرها السامعون في أسلوب موجز مستخدمًا كم الخبرية المفيدة للتكثير، مضيفًا إلى ذلك الإشارة إلى النتائج المرة لمن حاد عن جادة الحق، وقد وشح هذه الخطبة القصيرة بالسجع المحمود والطباق والاقتباس، فمن سمع هذا وهو فاتح أبواب قلبه زهد في الدنيا وحذر حرامها قانعًا بحلالها.

[1] البيان والتبيين (٢/ ٩٨).

كتابة خطبة الجمعة

خطبة الجمعة نشاط علمي ووعظي يؤديه الخطيب كل أسبوع، يقف على منبره أكثر من ثمانية وأربعين موقفًا في العام، وفي كل موقف يحتاج إلى موضوع جديد ينفع به نفسه والناس، ولو جئنا نحصر خطب الخطيب الذي لم ينقطع عن امتطاء منبره خمس سنوات مثلاً؛ فسنجد حزمة معلوماتية كبيرة جداً، وهناك من الخطباء من تذهب عنه هذه المعلومات المعدّة، ولو أرادها مرة أخرى لرجع إلى إعدادها من جديد!

لكننا نقول: إن الخطباء أصناف، القليل منهم من يعرف عظمة هذه الرسالة وآثارها فيدعوه ذلك إلى العناية الكبيرة بها تحضيراً وإلقاءً.

ومن أعظم صور هذه العناية: كتابة الخطبة وتدوينها لمن صار أهلاً لذلك، ومهما يكن لارتجال الخطبة من ميزات بين السامعين إلا أن منافع الخطبة المكتوبة أكثر، كما سيأتي.

ولا ريب أن خطباء الجمعة في العالم كثير وهم فرقاء متعددون، ويمكننا أن نجعلهم أربعة:

الفريق الأول: خطباء ليست الخطابة مجالهم، ولكنهم في مكان لا يوجد فيه سواهم ممن يحسن القراءة أو الإلقاء، فيقومون بين الناس بقراءة خطبة مكتوبة لغيرهم لإسقاط الواجب الشرعي، فهذا عمل مشكور، وسد لثغرة من ثغور الإسلام.

الفريق الثاني: خطباء مؤهلون للخطابة علمًا وتحضيراً وأداءً، ولكنهم ينحنون منحى الفريق الأول في الخطابة بالإفادة الكاملة من خطب غيرهم؛ لانشغالهم أو استصعابهم إعداد الخطبة مع قدرتهم عليها.

فالأحرى بهؤلاء أن يجعلوا لخطبة الجمعة نصيبًا من وقتهم ليحضروا خطبة تمثل شخصياتهم.

الفريق الثالث: خطباء يعدون خطبة الجمعة دون الرجوع إلى خطب الآخرين، ويقومون بصنع ملخص للخطبة في عناصر محددة، أو ما تسمى برؤوس أقلام، فحينما يصعد الواحد منهم إلى المنبر يرتجل الخطبة مستعينًا بتلك العناصر في الترتيب والتذكير.

وهذه الطريقة وإن كان لها محاسن، لكنها لا ترتقي إلى الدرجة العليا في الخطابة- في نظري-؛ لأن الأفكار وإن كانت مرتبة إلا أن الكلام المنضوي تحتها قد يأتي غير مرتب؛ فقد يحصل فيه تقديم وتأخير، وإعادة وتكرير، وأخطاء متنوعة، كما أن الخطبة ستنتهي بانتهاء الخطيب منها، ولا تبقى للإفادة منها مستقبلاً. وقد سلكت هذه الطريقة مدة ثماني سنوات من عمري الخطابي، فرأيت أن نفعها قليل؛ فلهذا سلكت الطريقة الآتية منذ خمس عشرة سنة فرأيت انتفاعي بها وأظن أنها نفعت غيري.

غير أن الخطيب-في هذه الطريقة- الذي يسجل خطبته أو يسجلها له غيره ثم تفرغ في قالب كتابي تسد فجوة النقص- التي أشرنا إليها- بذلك، لكن الخطبة

التي تفرغ من أجهزة التسجيل تحتاج إلى إعادة صياغة خطابية وإضافة أشياء وحذف أخرى.

الفريق الرابع: خطباء يكتبون خطبهم قبل إلقاء الخطبة، ويصوغونها صياغة خطابية كاملة، فتكون الخطبة بذلك سالمة المادة صالحة الأسلوب وافية بالموضوع.

وخطباء هذا الفريق بعد ذلك لهم طرق: فمنهم من يلقيها كما هي بدون زيادة أو نقصان، ومنهم من يحفظها أو أكثرها ويلقيها، ومنهم من يكتب أهم ما فيها ثم يرتجلها.

ومن خلال تجربتي أنصح زملائي الخطباء المؤهلين في علوم الشريعة وعلوم العربية، الذين امتلكوا آلة الكتابة، وهم من أهل المعرفة الكافية بالشرع؛ أن ينحنوا منحى الفريق الرابع، فيكتبوا خطبهم؛ لما فيها من منافع لهم وللناس، ومن ذلك:

١-أن كتابة الخطبة كلها تجعل الخطيب يقرأ في الموضوع ويبحث عن مادته في مصادر عدة، فيكتسب معلومات جديدة، ويصحح بعض ما لديه من معلومات خاطئة عن الموضوع.

٢-في كتابة الخطبة يحصل ترتيب الموضوع حتى يستوعبه الخطيب والجمهور مرتبًا.

٣-الخطبة المكتوبة تريح الخطيب وتحميه من الوقوع في مآزق خطابية متنوعة.

٤-حينما يكتب الخطيب الخطبة وتبقى لديه يفيده ذلك السلامة من عناء الإعداد مرة أخرى، إن احتاج لذلك الموضوع في المستقبل، خاصة خطب المناسبات، كما أن ذلك سيحفظ له الوقت الذي سينتفع به في أشياء أخر.

٥- كتابة الخطبة تحث الخطيب على الارتقاء بنفسه علميًا وأسلوبيًا، وتطلعه على كثير من كتب العلم ومصادر المعلومات الأخرى.

٦-في الخطب المكتوبة نفع عظيم للناس في كل مكان وفي حاضر الزمان وآتيه، حينما تطبع تلك الخطب وتوزع، أو تثبّت على بعض المواقع الاليكترونية، فيكون ذلك من العلم النافع الذي لا ينقطع أجره عن الخطيب بعد مماته إذا صلحت النية.

ورب خطيب يخطب بخطبته خطباء كثر في مساجد عدة بين المسلمين في كل مكان.

نصائح لمن يريد من الخطباء كتابة خطبته:

١-أن تكون لدى الخطيب رغبة تامة في كتابة الخطبة؛ فإن الرغبة تدفع إلى الإحسان والاستمرار، وهذا الشرط يسميه بعضهم بالطبع الموافق، فإذا لم يكن لدى الخطيب رغبة موافقة على الكتابة فإنه لن يجيد ولن يستمر، حتى ولو كان عنده من العلم وآلات الخطابة النظرية ما عنده.

٢-يستحسن أن يقرأ الخطيب للخطباء المجيدين-المتقدمين والمتأخرين- "؛ فإن ذلك ينشطه على الكتابة، ويدعوه إلى المحاكاة، ويرفد الرغبة، ويوصل إلى

الملكة، قال ابن عاشور- عن الغرض من دراسة فن الإنشاء-:" الأصل فيه هو الممارسة، ومزاولة مآثر نوابغ الكُتَّاب في ألفاظهم ومعانيهم؛ لتحصل منها في ذِهْن المُطَالِع قوالبُ غيرُ جُزْئِيَّة تُفرَغُ فيها أمثالُها ". وقال أيضًا-وهو يقرر أهمية التمرن على الإجادة-:" ويحصل ذلك بمطالعة كلامِ البلغاء، وتتبُّع اختيارهم، وسَبْر أذواقهم في انتقاء الألفاظ، وابتكار المعاني، لتنطبع في الذهن صُوَرٌ مناسبةٌ "[1].

٣-أن يبدأ بجمع المادة من مصادرها ثم بعد ذلك يرسم خطة لترتيب الموضوع بماذا يبدأ وبماذا ينتهي؟، ثم يشرع بعد ذلك بصياغة الخطبة.

٤- سيجد الخطيب في كتابة خطبته صعوبة بَدْأَةَ ذِي بَدْءٍ، ولكن تلك الصعوبة ستخف مع الاستمرار، ويحسن بالخطيب ألا ينقطع عن الكتابة الإنشائية ولو في مجالات أخرى؛ فإن ذلك أعون على بقاء التدفق التعبيري والوصول إلى الإجادة، وهذا يدعونا إلى لفت انتباه مدرسي اللغة العربية في المدارس إلى أن يعنوا عناية كبيرة بين تلامذتهم بمادة التعبير؛ لما لها من آثار حسنة في المستقبل العلمي لهم.

٥-على الخطيب أن يحسن اختيار الألفاظ، واصطفاء المعاني، ويتأنق في التراكيب والصياغة من غير إغراب ولا تعقيد ولا تكلف.

٦-أن يعنى الخطيب عناية خاصة بالمقدمة، والولوج منها إلى الموضوع،

---

[1] أصول الإنشاء والخطابة (ص: ٤٧، ١١١).

والخاتمة؛ فإن هذه المواضع الثلاثة هي مواضع التأثير على السامعين والقارئين؛ فالمقدمة هي مفتاح الخطبة، والتخلص منها إلى الموضوع هو الباب إلى الغرض المقصود، والخاتمة هي ما سيبقى عالقًا في الأذهان من الخطبة أكثر من غيره.

٧-أن يختار الخطيب الوقت المناسب لصياغة الخطبة، ومن ذلك زمان نشاط البدن والقلب؛ فإن ذلك يعين على السلاسة الأسلوبية وتدفق المعاني، وأن يحذر زمن فتوره وكدره وتعبه وقلة رغبته؛ فإن تلك الأحوال تسلم إلى التعقيد والتوعر والتنافر.

قال أبو هلال العسكري-وهو يتحدث عن صناعة الكلام:" واعمله ما دمت في شباب نشاطك؛ فإذا غشيك الفتور، وتخوّنك الملال فأمسك؛ فإنّ الكثير مع الملال قليل، والنفيس مع الضّجر خسيس؛ والخواطر كالينابيع يسقي منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الرّي، وتنال أربك من المنفعة. فإذا أكثرت عليها نضب ماؤها، وقلّ عنك غَناؤها ""[1].

٨-يحسن بالخطيب أن يسجل تاريخ خطبته واسم المسجد الذي ألقاها فيه.

٩-أن يرجع الخطيب مرة أخرى إلى الخطبة المكتوبة بعد إلقائها ليعدل عليها؛ فربما ذكر أثناء الإلقاء إضافة شيء أو حذفه.

١٠-فإذا رأى أن خطبته صالحة فليسارع إلى نشرها ولا يستصغر نفسه، ولا يبخل على المسلمين، فهذا أو ذاك قد يمنع بعض الخطباء من النشر، ولو وصلته

---

[1] الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ١٣٣، ١٣٥).

انتقادات أو ملحوظات فليفد من جيدها، ولا يكفه حادُّها من الاستمرار في العطاء، ومن يسلم من الخطأ من البشر؟ ولو كان لا يبث بين الناس إلا ما كان سالمًا من النقص لما قرأنا شيئًا!

فابدأ رحلتك من الخطأ لتصل منه إلى الصواب.

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ.

فهرس الموضوعات

الإهداء ٢
المقدمة ٣
علوم اللغة العربية ٥
أهمية اللغة العربية ١١
مشاهد حزينة على وجه العربية ١٦
النحو تعريفه وتاريخه ٢٢
أهمية النحو والحاجة إليه ٢٩
اللحن في الإعراب أوليته وخطره ٣٥
علم الأدب أهميته والطريق إليه ٤١
إبداع الأدب في وصف الأشياء ٤٥
أثر الأدب في نجاة صاحبه ٥٠
أهمية الشعر وعظم أثره ٥٥
قال الشعراء عن الشعر ٦٠
قال الشعراء عن الخطباء ٦٧
أبواب نحوية وصرفية يَكثر فيها لحنُ بعض الخطباء ٧٢
عناية الخطيب بالجانب البلاغي في خطبته ٨١
تذوّقُ الشِّعر والاستشهاد به ٨٨
الاستعانة بالأمثال العربية الفصيحة ٩٣
بعضُ الألفاظ الخاطئة لغةً وتصويبُها ٩٨

الثروة اللغوية وحاجة الخطيب إليها ١٠٧
نماذج من الخطب الجيدة ١١٧
كتابة خطبة الجمعة ١٢٣
فهرس الموضوعات ١٣٠